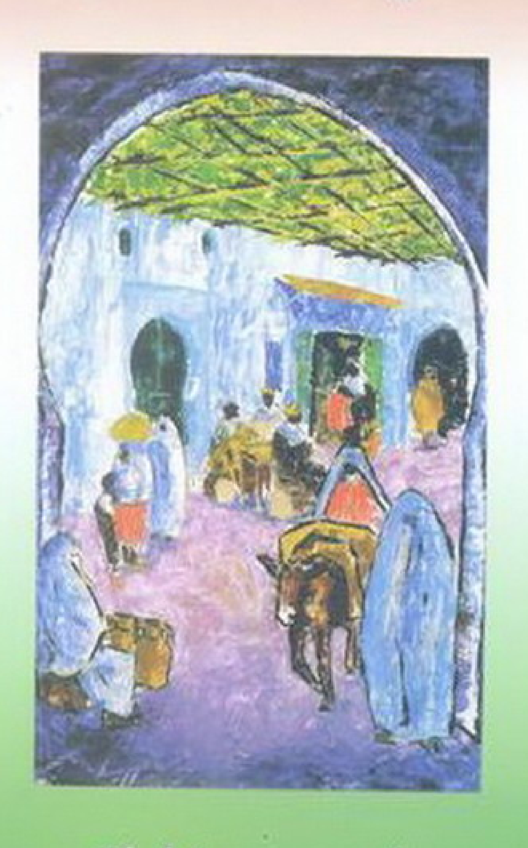
الجزائريون في تطوان
خلال القرن 13هـ/19م

مساهمة في التاريخ الاجتماعي المغربي



إدريس بوهليلة

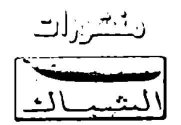
منشورات
الشماك

الجزائريون في تطوان

خلال القرن 13هـ/19م

مساهمة في التاريخ الاجتماعي المغربي

منشورات



محاضرات وأبحاث جامعية

سلسلة يشرف عليها نزار التجديتي وإدريس بوهليلة ومصطفى العمراني

- الكتاب الثاني -

الجزائريون في تطوان

خلال القرن 13هـ/19م

مساهمة في التاريخ الإجتماعي المغربي

الكتاب : الجزائريون في تطوان خلال القرن 13هـ / 19م
المؤلف : إدريس بوهليلة
الإيداع القانوني : 2012MO1380
ردمك : 978-9954-31-088-5
الطبع : مطبعة الهداية - تطوان، المغرب
الطبعة الأولى : 1434هـ / 2012 م

صورة وجه الغلاف : لوحة زيتية لحومة الوسعة المستقطبة للجزائريين، من إنجاز الفنان الجزائري الأصل محمد أطاع الله (1960 - 1963)

Mohamed ATTAALLAH، Retrospective des Tableaux 1954 au 1965.
GALERIE D'ART LAWRENCE-ARNOTT
TANGER - MARRAKECH.
P. 13

تقديم

شقّ الأستاذ إدريس بوهليلة طريقه، في ميدان البحث التاريخي، بصبر وأناة، منذ التحاقه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، وبرز من خلال مداخلاته الممتعة والمفيدة في مختلف اللقاءات العلمية، وأنجز أبحاثا ودراسات قيّمة حول التاريخ الاجتماعي لمدينة تطوان، مهّد لها بتحقيق ودراسة كتاب: "الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية"، لمحمد المشرفي (ت. 1916م)، الجزائري الأصل، والمهاجر مع أسرته إلى مدينة فاس سنة 1844م.

يضمّ هذا الكتاب - الذي أسعد بتقديمه لجمهور القراء والباحثين- مجموعة من المباحث، التي تسلط الضوء لأول مرة على ظروف هجرة الجزائريين واستقرارهم بمدينة تطوان عقب الاحتلال الفرنسي لبلدهم سنة 1830م؛ فقد استقبلت تطوان المهاجرين الجزائريين، ووفرت لهم ظروف الإقامة وسبل العيش والاندماج في المجتمع المحلي، مسجلة بذلك "صفحة من أروع الصفحات في التآزر المغربي الجزائري".

لقد استند المؤلف في بناء فصول هذا الكتاب على مختلف أصناف المصادر، وعلى رأسها الرسائل المخزنية الأصيلة، والحوالات الحُبسية، اقتناعا منه بضرورة الاعتماد على الوثائق الوطنية والمحلية في كتابة التاريخ المغربي، لتجاوز التخريجات المغرضة للدارسين الذين اقتصروا على الوثائق الأجنبية. ولقد اعتمد الأستاذ بوهليلة منهجية تحليلية تقوم على قراءة الوثائق وتفكيك مركباتها، ودراستها، ونقدها، وتقويمها، مبرزا عن قدرة وكفاءة هائلة على الاستقراء والاستنباط.

ولقد ناقش المؤلف وفنّد بعض الأطروحات التي حاولت المدرسة الفرنسية الاستعمارية الترويج لها، وكرستها دراسات بعض المؤرخين العرب، ومنها أطروحة التباين والصراع والعداء بين الجزائريين والمغاربة، ودور المهاجرين الجزائريين في إنجاح المخطط الاستعماري الفرنسي بالمغرب. بل إن ما يورده الأستاذ بوهليلة من معطيات، وما يستشهد به من نصوص ووثائق، وما يخلص إليه من استنتاجات، ليؤكد جليا أن

"ما يجمع هذه الشعوب المغربية أكثر ما يُفرّقها، وأنها متضامنة وموحدة في الخيارات والتوجهات العامة".

والواقع أن الأستاذ بوهليلة، المسكون بالحسّ الوطني المفعم بروح عربي إسلامي، والمدرك لماهية التاريخ والكتابة التاريخية، وبما تمليه عليه الموضوعية التاريخية، قد وضع نصب عينيه البحث عن الأدوار الإيجابية للمهاجرين الجزائريين بتطوان، وإبراز مساهمتهم في مختلف المجالات: العلمية، والثقافية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. كما بيّن من خلال تفاصيل الحياة اليومية قدرة المهاجرين الجزائريين على الاندماج الواسع، وسهولة عملية ارتقائهم الاجتماعي، وكذا روح التسامح لدى مجتمع الاستقبال التطواني، الذي اغتنت روافده البشرية بالعنصر الجزائري الذي ما زالت بصماته حاضرة في كثير من مظاهر حياة تطوان وحضارتها إلى الآن.

فهذا الكتاب مساهمة جادة، وغير مسبوقة، لإماطة اللثام عن جانب مغيب من تاريخ تطوان الاجتماعي في القرن 13هـ/ 19م. وهو بذلك يعتبر لبنة في صرح كتابة التاريخ الاجتماعي للحواضر المغربية في القرن التاسع عشر الميلادي.

هل يحتاج الأمر للتذكير بأن أواصر الأخوة لم تنفصم يوما بين الشعبين المغربي والجزائري؟ يكفي أن نستحضر هنا بعض ما تضمنته الوثائق المخزنية- التي يستشهد بها المؤلف- من تعليمات سلطانية إلى السلطات الإقليمية بضرورة حسن استقبال الجزائريين اللاجئين إلى تطوان والتكفل بهم، وكلها تؤكد على روح التضامن والتكافل والتعاون والوحدة بين الشعبين، ومن ذلك رسالة بتاريخ 11 جمادى الأولى 1254هـ يوردها الفقيه محمد داود في "تاريخ تطوان"، جاء فيها:" إن أهل الجزائر ناس غرباء أخرجهم العدو الكافر من أرضهم ووطنهم. والتجأوا إلى إيالتنا، واستظلوا بظل عنايتنا، فينبغي لنا أن نؤنس وحشتهم، ونعاملهم بما ينسيهم غربتهم، لأنهم إخواننا في الدين. وقد أمرنا خديمنا الطيب البياز أن يسقط عنهم الكلف والوظائف كلها قلت أو جلت، رعاية لذلك، وتطوان تبع فاس، فلا تترك من يكلفهم بشيء قل أو جل. وأحسن جوارهم، وعاملهم بما يناسب حالهم، ويظهر أثر العناية بهم والرعاية لهم، تطييبا لنفوسهم وجبرا لخواطرهم ". كما أن موقف النخبة التطوانية جاء مؤكدا لهذه الروح التضامنية، كما نقرأ

في السيرة الذاتية للتهامي الوزاني الذي كتب عن الهجرة الجزائرية لتطوان وأثرها الحضاري قائلا: "أخذ الأمير عبد القادر يستنجد ويكاتب أعيان المغرب وعلماءه، فكان من جملة من يكاتبهم في ذلك، الشيخ سيدي محمد الحراق الذي كان كغيره من العلماء وباقي المسلمين يعطفون على الجزائر وجهادها. وكان التطوانيون بالخصوص لهم عطف زائد على إخوانهم في الجزائر حيث كان تصلهم الأنباء عن قرب من بلاد الريف. وقد عرف الجزائريون أن المغاربة التطوانيون يشاركونهم في ألمهم. فطفق أهل العلم والخير وقوم من المستضعفين يلتجئون إلى تطوان فكانوا يصلونها أفرادا وجماعات في أوقات مختلفة، فأدخلوا معهم إلى تطوان العوائد التركية وكثيرا من ثقافة الجزائر وأخلاقها. فأخذ التطوانيون يأخذون عنهم الحضارة التي جاءوا بها وضموها إلى الحضارة الأندلسية المغربية التي كانت موجودة بالبلد".

فهل يستفيد ساستنا من تجارب الماضي الوحدوي، ويستلهمون تجاربه الوحدوية لتجاوز معوقات البناء المغاربي؟ إن العولمة لا تعترف إلا بالوحدات الكبرى، ولا تكاد تعير وزنا للوحدات الصغرى المجهرية، وكل المؤشرات تؤكد أنه لا مستقبل للدول المشكلة للفضاء المغاربي إلا في تكتلها ووحدتها. فالمنطقة المغاربية ليست مجرد كتلة جغرافية، بل إنها مجموعة حضارية صاغت هويتها من خلال تاريخها المشترك، حيث لا يمكن أن يجادل أحد في المصير المشترك لشعبين تحكمهما شروط تاريخية واجتماعية متشابهة كما هو الحال بالنسبة للشعبين المغربي والجزائري. ذلك هو الدرس الذي سيستخلصه كل قارئ لهذا الكتاب.

الدكتور محمد الشريف

مقدمة

استقبلت مدينة تطوان المُطلّة على البحر الأبيض المتوسط، موجات من المهاجرين الجزائريين، جماعات وأفراد، على إثر إقدام دولة فرنسا في خطوة عسكرية جريئة، على احتلال الجزائر ابتداء من سنة 1246هـ/1830م في أثناء أوج الامبريالية العالمية، ضاربة عرض الحائط حقوق الشعوب في تقرير مصيرها في حياتها العامة، كما نصّت على ذلك بنود " الإعلان عن حقوق الإنسان والمواطن" سنة 1204هـ/1789م ـ كنتيجة طبيعية للثورة الفرنسية ـ وبنود الدستور الفرنسي لسنة 1206هـ/1791م، والتي ستُصبح مُقررة في الدساتير الفرنسية المتعاقبة، وكما في القانون العام الأوربي والدولي على حدّ سواء.

هذه الموجات من الهجرات الجزائرية، كانت حينئذ من أهم ظواهر وحوادث القرن 13هـ/19م، بما ترتّب عنها من انعكاسات وتداعيات، ليس على صعيد الجزائر فحسب، وإنما على صعيد المغرب الأقصى والمغرب الكبير قاطبة. فقد كانت هذه الهجرات، وحوادث أخرى مواكبة ومتعاقبة، منها: احتلال الجزائر(1246هـ/1830)، وهزيمة المغرب في حرب إيسلي (1260هـ/1844) أمام القوات الفرنسية، وحرب تطوان (1276هـ/1859 ـ 1860م) في مواجهة الجيش الإسباني، من بين مؤشرات دخول المغرب إلى التاريخ المعاصر عنفا وقهرا، لم يُعهد لها مثيل فيما قبل ولا بعد. ستُقرر مصيره المستقبلي المليئ بالنكسات والانكسارات؛ حيث سيعرف المغرب عهد الاحتلال الشامل لأراضيه والاستلاب الثقافي والاقتصادي والحضاري بصفة عامة، فضلا عن اقتطاع أراضيه الشرقية والجنوبية، وضمها إلى مستعمرات فرنسا بالجزائر ظلما وعدوانا. وسيؤثر كل ذلك على بنيته الاجتماعية، وتنظيماته السياسية، واستقراره

الجيو سياسي، وعلاقاته بدول الجوار ..إلخ. وأفرز هذا الوضع وبالملموس، الفرق الشاسع بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط على جميع المستويات التقدمية الحضارية. وهو الفرق الذي مازال هائلا إلى الزمن الراهن.

في ظل هذه الظروف العصيبة من تاريخ المغرب المعاصر، كان لابدّ وأن يُثير الوجود الجزائري على أرض المغرب إشكالية تفرعت عنها جملة من الأسئلة والاستفهامات. نستجزئ منها: كيف تعامل المخزن المغربي، ممثلا في السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام، مع ظاهرة الهجرة والوجود الجزائري بتطوان؟ وما هو موقفه منها ؟ وكيف فسّرها؟ وما هو الموقف الذي تبناه بعض أهالي تطوان من هذه الظاهرة؟

وإذا كان للطرفين المغربيين المذكورين موقفا موحدا بيّنا، عبّرت عنه الوثائق المخزنية ـ لسان حال السلطان ـ والوثائق والكتابات التاريخية، فكيف كانت بالمُقابل، مواقف الجزائريين، إزاء الحروب المفروضة على المغرب الأقصى والاحتلال الأوربي، وفي مقدمته إسبانيا وفرنسا، من خلال ما خلفوه من كتابات، والتي تؤشر على مدى وطنيتهم وقوميتهم العربية الإسلامية ؟ وما هي مواقفهم تجاه نظام الحكم المغربي، والتي تعبر عن مدى تشبّثهم بالسلطان وسيادته؟ وما مدى اندماجهم في الوسط الاجتماعي والثقافي بتطوان؟ وما هي درجة تأثيراتهم، وأنواعها، وآثارهم الباقية منها بالمدينة؟

وفي الاتجاه المعاكس نتساءل عن الطرف الآخر، عن نظرة الآخر، ونعني به كُتاب الاستعمار، ونقول: كيف فسّر مُنظرو الاستعمار، مفهوم الهجرة كما مارسها الجزائريون، عندما حطوا رحالهم، في مدن وقرى المغرب سنة 1246هـ/1830م وما بعدها؟ وكيف حاولوا توظيفها لتحقيق مصالح دولتهم الفرنسية، وبثّ التفرقة بين أبناء المغرب الكبير والتي مازالت آثارها، تؤثر سلبا في سياسات حكامه إلى الآن، كما هو معاين في فشلهم في تحقيق اتحاد المغرب العربي؟

هذه جملة من الأسئلة الإشكالية، التي يروم موضوع هذا الكتاب، الإجابة عليها بنوع من الموضوعية التاريخية، والحسّ الوطني والقومي العربي الإسلامي، وبوعي وإدراك لماهية التاريخ ومسؤولية الكتابة التاريخية، خاصة في هذه الوضعية الحالكة، التي يمرّ منها المغرب الكبير والعالم العربي والإسلامي، من أزمات وانتكاسات حضارية مستمرة ومتعاقبة، تمخضت عنها ثورات في مختلف الدول العربية مشرقا ومغربا، وُصفت تفاؤلا بـ"الربيع العربي"، والتي ستُغير لا محالة، الكثير من الأوضاع والسياسات لهذه الدول التي مثلتها.

نقول: هذا الكتاب سوف يحاول الإجابة على الأسئلة المطروحة. ولكنه لا يدّعي القول الفصل فيها ، وإنما هدفه الأول التنبيه إليها تنبيها، يحظى بمكانة الحادثة، حادثة هجرة الجزائريين، وما تمخض عنها من بزوغ أفكار وممارسات إيجابية، على أرض تطوان خاصة والمغرب عامة، في مواجهة الوضع المأساوي السابق الذكر. وهي أفكار وممارسات وصفناها بالوحدوية، والتضامنية، والتكافلية، والتعاونية..إلخ في وقت اشتداد الأزمات. وقد بدا لنا، أنّ مثل هذه الأسئلة وغيرها، تُعدّ من الأسئلة الشائكة والغامضة في آن؛ لأنها تتعلق بموضوع، أثار الكثير من الشكوك والكثير من الحزازات والحساسيات، ومازال يثيرها إلى الآن، ويؤثر في مستقبل دول المغرب، ومشروع بناء تكتل جهوي مغاربي، يحظى بثقة الأطراف المعنية، في إطار ظروف دولية يطغى عليها ما يُصطلح عليه بـ"العولمة"؛ حيث لا حياة، ولا تقدم للدول الفردية، إلا في تكتل قوي، واقتصاد متكامل ومتطوّر. إنه عصر الاتحادات، في وقت يعيش فيه العرب عصر التفتيت والشتات. فهل " الربيع العربي" كفيل بإخراجهم من هذا الشتات والسبات العميق، كما هو معاين الآن، إلى بريق المستقبل، إلى نهضة فكرية واجتماعية واقتصادية، وإلى اتحاد ووحدة، يحس فيها الإنسان العربي بإنسانيته، وكرامته، وحريته؟

يُمكن إيجاز بعض أهداف الكتاب، فضلا عن ما ذُكر في:

ـ المساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي لمدينة تطوان في القرن 13هـ/ 19م، من خلال دراسة هجرة الجزائريين إلى المدينة، والتي شكلت شريحة اجتماعية مهمة، انضافت إلى الشرائح الأخرى، المكوّنة للمجتمع التطواني وحضارته. هذا الجانب من الدراسة، نعدُّه جانبا أساسيا من جوانب تاريخ تطوان المنسيّ، الذي ـ حسب اطلاعنا ـ لم يُدرس بعناية، وافتحاص، ونقد إلى الآن، رغم الآثار المُختلفة الأبعاد، التي خلفتها هذه الشريحة الاجتماعية، على المستوى المحلي والوطني معا، في الحال والمآل.

ـ تفنيد الأطروحة الاستعمارية حول المفهوم، الذي أوّلت به الهجرة الجزائرية إلى المغرب، بناء على معطيات ووثائق المرحلة المدروسة. وهي الأطروحة التي مازالت رغم مرور زمن غير قصير على صدورها، تؤثر في فكر بعض الباحثين المُحدثين بصورة أو بأخرى.

ـ تبيان بعض أنساق الفكر السلطاني المغربي، في أوقات الأزمات، واحتلال الأوطان، والنزوح الاضطراري للسكان عن مواطنهم. وهو الفكر الذي كان يستلهم التجربة الإسلامية في الحكم، وفي كيفية التعامل مع المستجدات الوطنية، والإقليمية والدولية.

ـ تبيان رؤى المغاربة والجزائريين، حول القضايا الوطنية والاستقلال والوحدة؛ حيث بدا لنا أن ما يجمع هذه الشعوب المغربية أكثر ما يُفرّقها، وأنها متضامنة وموحدة في الخيارات والتوجهات العامة، وأن ما يُفرّقها هو السياسة والقائمون على السياسة. ولنا دليل على ذلك، هو تضامن الشعبين المغربي والجزائري، في مناسبات عديدة، وخاصة في أوقات الأزمات، في مقابل، تنافر توجهات القائمين بالحكم، بفعل الحسابات الضيقة والمصلحة الذاتية، فضلا عن التدخل الأجنبي الذي زاد من هذا التنافر والتباعد إلى حدّ القطيعة في أحايين كثيرة.

ـ تمثُّلُ قول الزعيم الوطني للمغرب الكبير عبد الله إبراهيم: " إذا أعانت هذه الصفحات جماهير قرائها وقارئاتها، شيئا ما على إعمال الفكر، وتعقيل المعطيات، وتحديد المضمون بالضبط في مختلف القضايا التي تعالجها... وإذا أعانت شيئا ما أيضا على بث روح الالتزام المسؤول بالموقف الواعي من نفس تلك القضايا في الجماهير المغربية الواسعة، فقد أصابت إذن هدفها الحق، وأنجزت مهمتها" (أوراق من ساحة النضال، ط.1، الدار البيضاء 1975،ص3).

والكتاب في الأصل، مجموعة من العروض والمقالات، التي شاركنا بجلّها في ندوات وطنية ودولية، فيما بين سنتي 1997 و2009، ونشرت ضمن أعمال هذه الندوات وفي كتب جماعية ومجلات مختلفة فيما بين سنتي 2000 و2010، وواحدة قيد النشر. وقد أحالنا على ذلك في محله من الهوامش.

وتجدر الإشارة، إلى أننا تصرفنا بعض الشئ في النصوص الأصلية لهذه العروض والمقالات، من حيث التنظيم، وتغيير بعض العناوين الفرعية، أو زيادة بعضها، وتحيين بعض المعطيات في الهوامش وغير ذلك. إلا أن هذا التصرف، لا يمس جوهر متن

النصوص الأصلية شكلا ومضمونا. وإنما هو ناتج، عن الاختلاف بين طبيعة الكتاب وطبيعة العرض و المقالة.

ونرجو أن يُثير هذا الكتاب، نقاشا جدّيا بين القرّاء، يُفضي إلى إغناء أفكاره ومضمونه، ويُصحح هفواته وسقطاته، ويساهم في بلورة أفكار تُقرّب بين دول المغرب الكبير، بالقدر الذي يُدعّم وحدتها، كخطوة في اتجاه وحدة العالم العربي. وهذه الخطوة، ليست بالأمر الهيّن ولا بالأمر المستحيل، إذا ما توافرت الإرادة الصلبة، والعزيمة الثابتة، والإيمان القوي لدى الشعوب والحكام، وأُزيحت رؤوس الاستبداد والاستكبار، وعُمّمت نُظم الديمقراطية، بما يضمن العدالة، والحرية، والكرامة الإنسانية، والتشبث بالهوية المغربية بأبعادها المختلفة العربية الإسلامية والمتوسطية. وكما يقول قسطنطين زريق" فعسى أن تكون علاقتنا بالتاريخ علاقة تفاعل إيجابي مستمر، وعسى أن تكون تحدياته لنا دوما حافزة مُستثيرة وردودنا عليها رفيعة مبدعة، وعسى أن نتمكن في هذا الظرف الرهيب من حياتنا من أن نردّ على تحديه الضخم الخطير بأصفى ما نمتلك من فكر، وأنفذ ما نقدر عليه من عمل، وأروع ما نحن أهل له من خلق وإبداع" (نحن والتاريخ، بيروت،ط.3، 1974،ص 242).

وإنني أنتهز هذه المناسبة لكي أقدّم جزيل الشكر والتقدير إلى زملائي وأصدقائي السادة الأساتذة الأفاضل: د. محمد الشريف عن تفضّله بكتابة تقديم لهذا الكتاب ومراجعته كلمة كلمة، ود. أحمد اليوسفي الذي وضع لمساته التقنية على الخريطتين المرفقتين بالكتاب، ورفاقي في إدارة مجلة "سيميائيات" المجلة المتوسطية للأشكال الحضارية: د. نزار التجديتي، ود. مصطفى الهرار العمراني اللذان شجعاني على نشر الكتاب وألحا عليّ في ذلك. وكما أُقدّر المجهود الذي بذله الأستاذ الباحث شكيب الشعايري في التفتيش على صورة رمزية للتضامن التطواني ـ المغربي الجزائري والتي أثبتناها على ظهر غلاف الكتاب . ومن الله نرجو التوفيق والسداد.

تطوان في 21 صفر1433هـ/15 يناير 2012 م

المؤلف

الفصل الأول

تقييم الوثائق المخزنية حول هجرة الجزائريين إلى تطوان سنة 1246هـ/ 1830م*

مقدمة

كانت مدينة تطوان الواقعة في شمال المغرب المتوسطي، مقصدا لتيارات هجرية جماعية وفردية، تألفت من الجزائريين، على إثر الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر العاصمة سنة 1246هـ/1830م وما بعدها.

هذه الظاهرة الهجرية الجديدة، تماثل إلى حد ما، في العديد من خصائصها، هجرات الأندلسيين إلى تطوان خلال القرنين 16 و17 الميلاديين. وإذا كانت هذه الأخيرة قد دُرست بعناية واهتمام بأبعادها المختلفة من طرف المؤرخين القدامى والمحدثين، باختلاف توجهاتهم العلمية البحثية، فإن ظاهرة هجرة الجزائريين، لم تلق ذلك الاهتمام والعناية، باستثناء ما أورده بعض الباحثين والكُتاب من إشارات متفرقة عنها، في ثنايا كتاباتهم وأطروحاتهم سواء المونوغرافية والحديثة العهد حول تطوان، أو تلك التي أرخت لتاريخ المغرب العام. فبقيت ظاهرة هجرة الجزائريين إلى تطوان مُغفلة، ومن ثَم بقيت أخبارها القليلة مادة خام، تتوزعها المصادر المغربية المُختلفة وخاصة الوثائق المخزنية، ونخص بالذكر منها الرسائل السلطانية، تنتظر من يسبر أغوارها ويكشف خباياها، ويحلل خطابها السياسي والاجتماعي والثقافي، تحليلا تاريخيا هادفا ومنفتحا، واضعا نصب أعينه مستقبل المغرب الكبير، الذي ليس لبلدانه وحكامها القطريين خيارا، إلا الوحدة والعمل المشترك وفتح الحدود أمام شعوبهم كما كانت في القرن 13هـ/19م، وفي

---

* شاركت بهذه الدراسة في ندوة دولية: *تطوان والتوثيق (من القرن 16 إلى منتصف القرن 20)*، التي نُظمت برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان أيام 16 و17 و18 دجنبر 2004. ونشرت ضمن أعمال الندوة بتنسيق الدكتور امحمد بن عبود، من منشورات كلية الآداب بتطوان سنة 2007، ص151 - 172. وكما نُشرت في مجلة كلية الآداب المذكورة، العدد13، سنة 2006، ص49 - 75 .

العصر الذهبي لحضارة المغرب في العصر الوسيط، حيث كانت هذه الشعوب تتحرك بحرية واختيار في مجالات هذه البلاد، وتمتثل لنظامها السائد في كثير من الأحوال .

وانطلاقا من المعطى التاريخي المحلي - الوطني والإقليمي وحتى الدولي لهذه الوثائق، وما تحمله من قيمة تاريخية، ارتأينا أن نقدم دراسة مقتضبة حول تقييم مضمونها التاريخي الاجتماعي، المُتّصل بهجرة الجزائريين إلى تطوان سنة 1246هـ / 1830م، إسهاما منا بالقدر المتواضع، في مقاربة جانب من جوانب تاريخ تطوان المنسيّ .

فماذا يقصد بالوثائق المخزنية ؟

المبحث الأول : التعريف بالوثائق المخزنية المعتمدة

1- التعريف اللغوي والاصطلاحي

الوثائق المخزنية، عبارة مركبة من لفظتين: "الوثائق" و"المخزنية". فالوثائق جمع وثيقة. والوثيقة في الأمر إحكامه والأخذ بالثقة[1]. ومن معاني الوثيقة: الإحكام، والضبط، والتَّبَثُ، والتحقيق.

وفي الاصطلاح التاريخي العام، تُطلق لفظة الوثيقة على "الآثار التي خلفتها أفكار السلف وأفعالهم"[2] . وتشمل كل ما هو مادي من مخلفات الماضي مهما كانت أشكالها وموادها ومنافعها[3]، منها المآثر المدنية والعسكرية، وكتابات وروايات شفوية، ومدونات وسجلات ، وإحصاءات، ونوازل، وحوالات حبسية ... إلخ ومن ضمنها – بطبيعة الحال – الكتابات المخزنية بشتى أنواعها : ظهائر، وكنانيش، ورسوم حسابية إحصائية، ومعاهدات وغيرها. ومن أبرزها وأكثرها ذيوعا وانتشارا، المكاتبات المخزنية، وبصفة

1- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، *لسان العرب*، مادة (وثق)، دار المعارف (دون تاريخ)، المجلد 6، ص 4764.

2- لانجلوا وسينوبوس، *المدخل إلى الدراسات التاريخية* ، ضمن كتاب *النقد التاريخي*، ترجمة عبد الرحمان بدوي، بيروت، دار النهضة العربية 1963. ص 5.

3- نفسه. ص 82.

خاصة الرسائل السلطانية، التي تُعدّ من أهم الوثائق الرسمية. وقد لاحظ عبد الله العروي في معالجته لمسألة الشاهد/الوثيقة أن مفهومها يتسع يوماً بعد يوم مع التطور الهائل في التقنيات، الذي تعرفه البشرية، حيث أضحى: "لا وجود للمؤرخ المطلق، كما لا وجود للوثيقة المجردة. كل ما يوجد هو وثيقة متميزة يستعملها باحث متخصص"[4].

أما "المَخْزَنُ" فهي لفظة مشتقة من فعل "خزن" أي حفظ وادّخر، فنقول: خزن التاجر بضائعه. بمعنى ادّخر بضائعه وجمعها في مخزن. والمخزن: مكان الادخار أو الخزن[5]. ولما كانت الأموال والأسلحة والأقوات مما يجب حفظه وخزنه، لأنها مرتبطة بحياة الناس، فإن مَنْ تمكن من الاستحواذ على المخزن بمعناه الاقتصادي والمالي والعسكري، استحوذ على مصادر القوة، ودانت له مقاليد السلطة ووسائل الهيمنة على الرقاب، واستطاع بالتالي النفوذ إلى القلوب. لهذا كان مصطلحا المخزن والسلطة مترادفين ومتداولين في كافة الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، وبقيا متداولين خلال القرن الثالث عشر الهجري موافق التاسع عشر الميلادي. حيث أضحى المخزن يعني مجموع الجهاز السياسي والإداري الحاكم، أو السلطة الحاكمة التي استمدت أفكارها الأساسية في تسيير شؤون الرعية من الأنظمة السياسية العربية المشرقية والمغربية الموروثة عن العصر الوسيط الإسلامي مع طغيان موروثات عصر الانحطاط الحديث .

نخلص إلى أن المقصود بالوثيقة المخزنية، هي تلك الكتابة الرسمية الناطقة باسم السلطة الحاكمة، أو جهاز الدولة في قضايا داخلية أو خارجية.

فما هي نوعية الوثائق المعتمدة ؟وإلى أي جنس من أجناس الآداب السلطانية تنتمي ؟

2– نوعية الوثائق المخزنية المعتمدة

هذه الوثائق المختارة، تدخل في باب كتابات الآداب السلطانية. وهي من جنس الرسائل السلطانية ذات النزوع السياسي الاجتماعي. وبديهي أن يطغى عليها الأسلوب المخزني الرسمي؛ لأنه يعبر عن رأي وفكر السلطان، الذي يشكل أعلى سلطة تنفيذية في

---

[4]- عبد الله العروي، *مفهوم التاريخ*(ج1) ، المركز الثقافي العربي، بيروت،ط.1، 1992، ص80

[5]- مجموعة من الباحثين، *المعجم الوسيط*، (مادة خزن)، القاهرة، مطابع دار المعارف بمصر ،ط. 2، 1393هـ/ 1973م، مج 1، ص 233.

البلاد، وهو حينئذ، السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام، الذي أمر بكتابتها في سنة 1246هـ/1830م. عددها ست رسائل. توجد أصولها في الخزانة الحسنية بالرباط، وبعضها يوجد في مديرية الوثائق الملكية بالرباط أيضا. وقد سبق لمؤرخ مدينة تطوان الفقيه محمد داود، أن قدّم لها ونشرها في كتابه تاريخ تطوان ، في المجلد الثامن، باستثناء واحدة، وهي الرسالة الخامسة حسب ترتيبنا لها زمنيا في الدراسة[6].

3 – تاريخ كتابة الرسائل السلطانية

بالنظر إلى أهمية الأحداث الدولية الخطيرة، وفي مقدمتها إقدام الدولة الفرنسية على احتلال مدينة الجزائر العاصمة ابتداء من سنة 1246هـ/1830م، ثم كافة القطر الجزائري بعد ذلك، وما تمخض عن هذا الاحتلال من أوضاع مأساوية وغير مستقرة، ألقت بظلالها على دول المغرب الكبير وعلى وجه الخصوص بلاد المغرب الأقصى، الذي تعرض لتدفق بضعة آلاف من المهاجرين الجزائريين، فإن السلطان المغربي مولاي عبد الرحمان بن هشام لم يتوان حينها، عن مواكبة تطور الظاهرة الهجرية بمدينة تطوان، عن طريق عيونه الاستخبارية المبثوثة هنا وهناك، أو عن طريق المكاتبات المباشرة بينه وبين عامله على تطوان السيد محمد أشعاش، كما هو الحال بالنسبة لهذه الرسائل التي بين أيدينا. وقد كُتبت في مددٍ زمنية قصيرة ومتعاقبة؛ فالفرق الزمني بين الرسالة الأولى والثانية هو نحو 41 يوما، والفرق بين الثانية والثالثة هو نحو 20 يوما، وهكذا. مما يدل على أهمية المقصد الذي تبتغيه المراسلة، المُنبثق عن أهمية الحادثة في نظر السلطات العليا المغربية، وامتدادها الجغرافي، وتأثيراتها السياسية بمنطقة المغرب الكبير.

وهذا ترتيبها الزمني حسب تاريخ كتابتها:

- الرسالة الأولى مؤرخة في 22 ربيع الأول سنة 1246هـ[7] موافق10 شتمبر1830م،

---

6 ـ وقد لاحظنا أثناء فحصنا للنسختين الأصلية والمنشورة، أن هذه الأخيرة تحتوي على بعض الاختلاف في الألفاظ، ربما يعود ذلك إلى أخطاء مطبعية صرفة أثناء النشر أو إلى سهو وقع في أثناء قراءة المؤلف للوثيقة وكتابتها.

7 ـ نشرها الفقيه محمد داود في *تاريخ تطوان*، الرباط، المطبعة الملكية، 1979، المجلد 8. ص 198. أصلها المخطوط يوجد في الخزانة الحسنية 35/1 ك IV (الرباط).

- الرسالة الثانية مؤرخة في 3 جمادى الأولى سنة 1246هـ[8] موافق 20 أكتوبر1830م،

- الرسالة الثالثة مؤرخة في 23 جمادى الأولى سنة 1246هـ[9] موافق 9 نوفمبر 1830م،

- الرسالة الرابعة مؤرخة في 08 شعبان سنة 1246هـ[10] موافق 21 يناير1831م،

- الرسالة الخامسة مؤرخة في 06 رمضان سنة 1246هـ[11] موافق 18 فبراير 1831م،

- الرسالة السادسة مؤرخة في 14 ذي القعدة سنة 1246هـ[12] موافق 26 أبريل 1831م،

8 ـ محمد داود، تاريخ تطوان، م . س، مج 8 . ص 207. أصلها المخطوط يوجد في الخزانة الحسنية بالرباط 25/1 ك V.

9 ـ محمد داود، م. س. ص 201-202. أصلها المخطوط يوجد في الخزانة الحسنية بالرباط 37/1 ك IV. وفي مديرية الوثائق الملكية بالرباط سجل 12187.

10 ـ محمد داود، م . س، ص 220.

11 ـ أصلها يوجد في الخزانة الحسنية بالرباط 27/1 ك V.

12 ـ محمد داود، تاريخ تطوان م . س. مج 8، ص 225.

وهذا نموذج مصور لإحدى الرسائل المخطوطة ـ الرسالة الثانية في الترتيب الذي وضعناه ـ الموجودة بمديرية الوثائق الملكية بالرباط .

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه



خديمنا الأرضى القائد محمد أشعاش أعانك الله وسلام عليك
ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد فقد بلغنا أن أهل الجزائر
الذين يردون منها [illegible] دار الإسلام فيهم البحرية والطبجية
والعارفون بصنعة [illegible] والكور والمدافع والمهارس [illegible]
[illegible] كل من يرد إلى [illegible]
وأعلمناهم [illegible] عرضة للضياع [illegible]
والسلام في 2 جمادى الأولى عام 1246

المبحث الثاني : تقييم الرسائل السلطانية

1 ـ الهندسة العامة للرسائل السلطانية

تتكون البنية الهيكلية الهندسية للرسائل السلطانية التي نحن بصددها، من ثلاث عناصر أساسية ثابتة، مثلها في ذلك مثل سائر الرسائل السلطانية والمخزنية عامة. هذه العناصر هي:

. **أولا**: المقدمة أو الافتتاحية : تبتدئ عباراتها بالحمدلة والتوحيد، وبعض الرسائل يزيد التصلية على النبي، يتلوها ذكر صفة المُرسل إليه واسمه – وهو القائد محمد أشعاش في هذه العينات – والدعاء له.

ثانيا: العرض أو المقصد: وفيه يتم عرض مضامين الرسالة والهدف والغاية منها. فبعد التذكير بأهم محتويات المراسلة السابقة الواردة على السلطان، باختصار وتركيز، يصدر السلطان مولاي عبد الرحمان ابن هشام في ردوده الجوابية[13] أوامره التي تشكل محور وغاية الرسالة السلطانية، ينبغي على المتلقي خديمه القائد أشعاش، قبولها على مضضٍ، والامتثال لها دون قيد أو شرط، كعادة سائر المتلقين المستقبلين للأوامر السلطانية السامية ببلاد المغرب الأقصى .

ثالثا: الخاتمة؛ وتنتهي عبارات هذه الرسائل بالدعاء للقائد والسلام، وإثبات تاريخ كتابتها.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الرسائل يتوسطها في الأعلى طابع سلطاني.

هذه بصفة عامة، العناصر الأساسية المكونة للبنية الهندسية للرسائل السلطانية، التي تبدو أنها ثابتة لا تتغير. إلا أننا قد نصادف بعض التغيير في بنية هذه الرسائل، ولكنه تغيير استثنائي ثانوي ولا يمس الجوهر؛ فالرسالة الخامسة انتهت بشكل طبيعي بالعناصر المذكورة (مقدمة، مقصد، وخاتمة)، ثم أضافت تكملة أشارت إليها الرسالة بلفظ

---

13 ـ الردود الجوابية، تمثلت في الرسالة الأولى، والثالثة، والرابعة، ثم السادسة. أما الثانية والخامسة، فهما رسالتان موجهتان مباشرة إلى محمد أشعاش.

"ومن تمامه"، لتدخل الرسالة في عرض موضوعات أخرى، منها وضعية الجزائريين في تطوان، ثم اختتمت الرسالة بلفظ "في تاريخه" أي أنها كُتبت في التاريخ المتقدم.

وعلى العموم، فالبنية الهندسية للرسائل السلطانية تظل هي هي، ثابتة لا تتغير. تتغير الموضوعات، ويتغير الكتاب والسلاطين، ولكن بنية الرسائل تبقى في قالب ثابت لا تتزعزع؛ تؤدي دورها كوسيلة أساسية للتواصل بين الأجهزة السلطوية المخزنية في البلاد.

ومن المفيد التذكير، بأن الرسائل المخزنية المغربية وغير المخزنية، بقيت وفية للتقاليد الكتابية العربية الإسلامية، الموروثة عن العصر الوسيط الإسلامي، شكلا ومضمونا، باستثناء دخول بعض المصطلحات الحضارية العثمانية والأوربية وخاصة الإسبانية بفعل الجوار أو الحتمية الجغرافية والاحتكاك الحضاري فضلا عن الاستعمار.

فما هوتقييمنا للخطابات اللغوية المستعملة في البناء العام للرسائل السلطانية النماذجية ؟

2 – لغة الرسائل السلطانية

الرسالة السلطانية بشكل عام، عبارة عن خطاب لغوي "يتضمن قضايا سياسية أو غيرها في قالب أدبي له بناؤه ومقوماته الفنية التي تبرز وتفتر من رسالة إلى أخرى ومن موقف إلى آخر، فنلفي هذا التداخل القائم بين الطبيعة العلمية الصارمة للرسائل السلطانية، وبين الحاجة إلى خطاب يوازي هذه الحاجات كلما دعت الضرورة إلى ذلك، فتتفاوت درجة الأدبية من رسالة إلى أخرى تبعاً لطبيعة المتلقي وانسجاما مع مفهوم المقصدية"[14].

14- الخلادي عبد الرحيم، دراسة تأثير تركيب الرسالة ودلالتها في السلوك البشري، مقال في *جريدة الصباح*، السنة 5، العدد 1305، الخميس 2004/06/17.

15 - الرسالة الأولى، مؤرخة في 22 ربيع الأول عام 1246هـ/10 شتنبر 1830

16 - الرسالة الثانية، مؤرخة في 3 جمادى الأولى عام 1246هـ/ 20 أكتوبر 1830

والخطاب اللغوي الموظف في الرسالة السلطانية – بوصفها وسيلة أساسية من وسائل التعبير – نشاطاً سياسيا إيديولوجيا، تستعمل فيه اللغة ببلاغتها وبيانها لبلوغ الهدف المتوخى منها. فليس هناك خطاب سلطاني بدون شكلٍ/لغة ولا هدفٍ.

والرسائل العينات التي بين أيدينا، كتبت بلغة عربية فصيحة في الغالب، بالرغم من أسلوبها البسيط القريب من اللغة العامية المغربية، وتخلو من التصنع اللغوي التعبيري، ذي الأسلوب السجعي، الذي قد نجده في بعض الرسائل المخزنية الأخرى.

هذا النوع من الخطاب اللغوي، ذي الأسلوب السلس والبسيط، يفهمه القارئ العادي والمتخصص بدون أدنى مجهود، باستثناء بعض المصطلحات السياسية، والتجارية، والعسكرية، التي كانت متداولة في المعجم الرسائلي المخزني في القرن 13هـ/19م، والتي لا يعرفها في الأغلب الأعم، إلا النخبة المخزنية وحاشيتها.

فلغة هذه الرسائل، وأسلوبها، وطريقة عرض الأفكار وتسلسلها، تدل على دُربة كاتبها، وحنكته في خِطةِ الكتابة المخزنية، ومعرفته بالقاموس السياسي المغربي عندئذ، وقواعد اللغة العربية. وإن كنا لم نجد، على الأقل، في هذه الرسائل النماذج تعقيداً أو تصنعاً في الأسلوب، وإنما وجدنا أسلوبا عربيا قريبا إلى اللسان المغربي الدارج، مما يتيح للعمال وكتابهم مهما كان تكوينهم اللغوي والثقافي، فهم مضمون الرسالة وهدفها بسهولة ويسر. نذكر بعض التعابير البسيطة، المستعملة في هذه الرسائل، كأمثلة على ما نقول : "فكل مَنْ ورد منهم قابِلْه بالبشاشة والقبول"[15]، و"إن أهل الجزائر الذين يريدون منها ردها الله دار إسلام فيهم البحرية، والطبجية، والعارفون بصنعة البُنْبَةِ، والكُورَةِ والمدافع"[16].

كما تستعمل الرسائل السلطانية، مصطلحات حضارية مغربيةٍ أصيلة، أو مصطلحات ذات الأصول الشرقية العربية أو العثمانية، كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل، منها: الباشا، والقائد، والمحتسب، والبحرية، والطبجية، والبنب، والكورة، والسكار، والأتاي، والجبن ... إلخ.

و كما تعبر هذه اللغة، بألفاظها وأسلوبها، عن نوع السياسة المنتهجة من طرف السلطة العليا في البلاد، إزاء الظواهر والقضايا الطارئة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ومن ذلك السياسة المقررة من طرف السلطان عبد الرحمان بن هشام، إزاء ظاهرة الهجرة الجماعية الاضطرارية الجزائرية إلى مدينة تطوان. وهي السياسة التي عبرت عنها مضامين الرسائل السلطانية النماذجية خير تعبير.

فما هو تقييمنا لمضامين الرسائل السلطانية؟

3 – مضامين الرسائل السلطانية

إذا كان الكاتب هو صاحب سلطة اللغة، فالسلطان هو صاحب سلطة الأفكار المعبر عنها في الرسائل السلطانية. ومع ذلك يبقى السؤال وجيها حول علاقة السلطان بسلطة لغة الرسائل. وليس من السهل الخوض فيه.

فمن دون شك، إن الأفكار التي تتألف منها لغة الرسائل هي أفكار السلطان، وهو الآمر بها شفويا وكتابة، تُنسب إليه بداهة. لذا سنحكم على أفكار مضامين الرسائل السلطانية من خلال صاحبها السلطان عبد الرحمان بن هشام.

يلاحظ، بادئ ذي بدء، أن خطاب السلطان عبد الرحمان بن هشام في هذه الرسائل، توجيهي بالدرجة الأولى؛ لا يُريد معرفة رأي المتلقي – محمد أشعاش – أو موقفه في القضايا المتراسل حولها، وإنما بالعكس تماماً، يسعى لتحضير هذا الأخير نفسياً، وباستعمال لغة لبقة مصحوبة بالدعاء له، ويدفعه عن طريق سلطة المركز النافذ وسلطة الأفكار إلى الموافقة على ما قرره، وما تم تسطيره في قبة البلاط السلطاني. فهو خطاب ممارسة سلطوية، لحظة صدورها عن السلطان، الذي يلغي أي حوار وتبادل للأفكار والآراء. يقول صاحب الابتسام عن دولة ابن هشام ما نصه: "فإذا أراد [أي السلطان عبد الرحمان بن هشام] أن يولي أو يعزل أو يسرح أو يسجن أو يعطي أو يمنع أحدا، فلا يشارك أحدا في شيء من ذلك، ولا يقدر أحد سواء كان وزيرا أو غيره أن يتعقب عليه حكما أو أمرا، وهم [أي الوزراء] يكونون بين يديه كالميت بين يدي

غاسله"[17]. فلم نقرأ في الرسائل السّت، كلمات تعبر عن التشاور في الرأي والموقف بين السلطان عبد الرحمان ومحمد أشعاش، وما قرأناه هو كلمات الأوامر والتوجيهات السلطانية. أوامر يجب أن تنفذ بدون تحفظ أو شرط. وهو الشيء الذي قد يبعدها عن الشورى ومعرفة الرأي الآخر كيف ما كان هذا الرأي . مثال ذلك: "فقلْ لـه يكتبْ"[18] و"فكل من ورد منهم قابلْه بالبشاشة.."[19] و"اختبرهم..."[20]...إلخ. مع العلم أن أفكار هذه الرسائل، بالصيغ التي كُتبت بها، يبدو أنها أفكار رسمية وجيهة، وجريئة، وجديرة بالتنفيذ، لو أن هذا التنفيذ سار في الطريق الصحيح وبالكيفية المبتغاة، لما في هذه الأفكار من معاني الإنسانية، والأخوة الإسلامية، والتضامن الاجتماعي، كما سيتبين بعد حين، من خلال قراءة مضامين الرسائل.

أ – مضمون الرسالة الأولى: التضامن والوحدة

كان قائد تطوان محمدا أشعاش، قد كتب للسلطان عبد الرحمان بن هشام – حسب ما يفهم من الرسالة – يخبره فيها بورود مركبين حاملين للمهاجرين الجزائريين إلى تطوان. فأمره السلطان في رسالته الجوابية هاته ـ التي بين أيدينا ـ بأن يُقابلهم "بالبشاشة والقبول" وجبر "خواطرهم بالإكرام ولين الجانب" لأن "جبر القلوب واجب وأحرى إخواننا المسلمين".

ما معنى هذا الأمر السلطاني؟ وما هي الفكرة المحورية التي يعبر عنها ؟

هذا الأمر، يتضمن فكرتين أساسيتين عبّر عنهما السلطان عبد الرحمان بن هشام، من خلال لغة الكاتب، بكلمات دالّة. وهما:

---

17 ـ *الابتسام عن دولة ابن هشام*، مخطوط يوجد في الخزانة الحسنية بالرباط رقم 12490، ورقة 48 أ.

18 ـ من عبد الرحمان بن هشام إلى محمد أشعاش، رسالة مؤرخة في 8 شعبان 1246هـ
انظر محمد داود، *تاريخ تطوان*، م . س، المجلد 8. ص 220.

19 ـ رسالة مؤرخة في 22 ربيع الأول 1246هـ انظر داود، نفسه . ص 198. وأصلها يوجد في الخزانة الحسنية بالرباط.35/1 ك IV.

20 ـ رسالة مؤرخة في 3 جمادى الأولى 1246هـ انظر محمد داود، نفسه، ص 207. وأصلها يوجد بالخزانة الحسنية بالرباط. 25/1 ك

– التضامن: فكرة التضامن، فكرة راسخة في ذهن وممارسة السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام تجاه الجزائريين المهاجرين إلى مدينة تطوان في سنة 1246هـ/ 1830م، وما قبلها وما بعدها، بل وتجاه الشعب الجزائري قاطبة يوم كان تحت نير الاستعمار الفرنسي. ونستبعد فكرة الطموح الشخصي والتلميع، والطمع في احتلال الغرب الجزائري، والقصد هنا تلمسان، التي ستصلها طلائع الجيش المغربي في وقت قريب، بقدر ما يعني هذا التضامن، تآلف الشعوب الإسلامية فيما بينها في أوقات الأزمات، وخاصة في مثل هذا الوضع. ومن تجلياتها الواقعية، تلك الممارسة الفعلية للسلطان عبد الرحمان بن هشام إزاء المهاجرين، تطبيقا لمضمون رسالته، التي نصت على حسن استقبال المهاجرين والعناية بهم غاية العناية، حيث جاء فيها: "فكلٌّ من ورد منهم قابله بالبشاشة والقبول، واجبر خواطرهم بالإكرام ولين الجانب فإن جبر القلوب واجب وأحرى إخواننا المسلمين الذين قهرهم العدو". ويُلاحظ في عبارات الرسالة، أن السلطان أعطى للجانب النفسي أهمية خاصة، لإدراكه معاناة الجزائريين النفسية على إثر الاحتلال الفرنسي، وإدراكه لما لهذا الجانب من دور في تكييف المهاجرين مع محيطهم الاجتماعي الجديد الذي لم يسبق لأغلبهم أن احتكوا به، وإنما سمعوا عنه ما تناقلته ألسن التجار الجزائريين أو التطوانيين وغيرهم، ممّن كان على اتصال بالمدينتين تطوان والجزائر العاصمة.

بعد التضامن النفسي، ورد في خطاب السلطان ما يُعبّر عن فكرة التضامن الاجتماعي - الاقتصادي، وذلك بإصدار أمره السامي، بإكرام المهاجرين وحسن معاملتهم، بقوله: "واجبر خواطرهم بالإكرام ولين الجانب". نظرا لحالتهم الاجتماعية؛ حيث كان فيهم: المعوزون والفقراء والمحتاجون، وحتى الفئات من الطبقة الوسطى والغنية؛ لأن الكل تقريبا، في مثل هذه الظروف، يكون في حاجة ماسة إلى المساعدة المادية والإدارية.

– الوحدة: بعد التضامن النفسي و الاجتماعي - الاقتصادي ، تشير الرسالة إلى فكرة ثانية، وهي فكرة "الأخوة" الإسلامية، وما تحمله لفظة "الأخوة" من دلالة على الصعيد الإسلامي. فمن دلالتها البارزة: الوحدة بين المسلمين، والمودة، والتعاون ... إلخ.

إن أواصر الودّ والأخوة، تجمع وتربط الشعبين المغربي والجزائري، وبالتالي المجتمع التطواني والمجتمع الجزائري، برباط متين، كشعبين ينتميان إلى أصول مشتركة من حيث الدين، واللغة، والتاريخ، والجغرافيا، والعرق، والثقافة . وهذا لا ينفي وجود اختلافات ترجع إلى خصوصيات المجتمعين، وخاصة على مستوى بعض الممارسات الاجتماعية ونُظم الحكم وغير ذلك.

إن الأخوة الإسلامية حسب الثقافة السائدة في كلا البلدين، تفرض على السلطان التعامل مع ظاهرة الهجرة، بما تعامل معها، وليس له خيار إلاّ التضامن بمستوياته المذكورة، لأنه يرى أن هذا الفعل هو من أوجب الواجبات في هذه الظروف الحالكة، بقوله: "فإن جبر القلوب واجب وأحرى إخواننا المسلمين الذين قهرهم العدو". وهذا يدل على نزوع النخبة المخزنية المغربية نحو الوحدة، عن قناعة ذاتية أو عن غير قناعة، فالتاريخ شاهد على ممارسات هذه النخبة، في وقت كان الجزائريون في منطقة الغرب، يتأهبون لتقديم طلب الخضوع والدخول في طاعة السلطان مولاي عبد الرحمان، عندما اشتدت بهم الأوضاع، لتحقيق مصالحهم بناء على فكرة الوحدة الدينية التي تقوم على اعتبار المؤمنين إخوة، وبناء على الأصول المشتركة المذكورة آنفا. وقد لعبت الهجرة دورا فعالا في محاولة تحقيق هذه الآمال، بالرغم من العراقيل التي كانت تضعها فرنسا. بل والأكثر من ذلك، إن هذه الأخيرة عارضت بالقوة والتهديد العسكري دخول السلطة المغربية والجيش، إلى تلمسان سنة1247هـ/1830-1831م، وسيادة حكمها فيها في إطار استجابة المغاربة لنداء الوحدة والتعاضد. وبالرغم من هذه المعارضة وخروج المغاربة منها، فقد ظل البلدان - المغرب والجزائر- مفتوحان أمام تحرك شعوبهما، التي انعدمت لديها فكرة الحدود، والتميز والقطيعة.

هكذا يبدو، من خلال الرسالة السلطانية - التي نحن بصددها - أن مسألة هجرة الجزائريين، قد شغلت بال المخزن المغربي، في شخص السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام، هذا الانشغال يعكس التوجه الوحدوي في فكر السلطان. وهو ليس توجه مغاربي فحسب أي يخص وحدة المغرب والجزائر، وإنما توجه يندرج في إطار شمولي هو الإطار الإسلامي، كما يتبين ذلك من خلال كلمات الرسائل، مثل: "إخواننا

المسلمين"[21]، و"فإنما المؤمنون أخوة"[22] وغيرها. وهي كلمات مفعمة بعبارات ذات المرجعية الثقافية الإسلامية، وغنية بالدلالات التي تنم عن الوحدة الإسلامية التي من أسسها وحدة المغرب الكبير. وقد لاحظ أحد الباحثين، أن هذه الوحدة، لم تكن مقصورة على فكر السلطان والرعايا المغاربة فحسب وإنما تجسدت أيضا في الفكر المغربي من خلال الفكر الفقهي بقوله: "وإذا كانت السلطة المغربية في القرن التاسع عشر، ومعها كل المغاربة، قد عبرت بشكل ملموس عن توجهها الوحدوي المغاربي والإسلامي، من خلال القضية الجزائرية فإن الفكر المغربي هو الآخر عمل على بلورة هذا المنزع الوحدوي مجسداً في الفقه"[23]. ولكنها تبقى في نظرنا، أفكار فقهية، وكلمات تُعبّر عن طموحات وآمال، ترتبط بخيال أصحابها أكثر من ارتباطها بواقعهم المعيش، حيث كان يصعب تحقيقها في مثل تلك الظروف الوطنية والإقليمية والدولية. ومن الشواهد على ذلك إقدام فرنسا على إفشال الوجود المغربي بتلمسان سنة 1247هـ/ 1831م.

بعد إيرادها لهذه الأفكار، التي تُعدّ من الأهداف الأساسية لسياسة السلطان في مسألة الهجرة، أوردت الرسالة بعض الاستطرادات، منها معلومات إخبارية تهم وضعية الجزائر وسكانها، وخاصة المهاجرين منهم إلى المغرب، والذين تحدثوا عن مرارة معاناتهم وأسباب هجرتهم، منها:

- السبب السياسي العسكري: الناتج عن الاحتلال، والذي تجلى في القهر والتسلط واستعمال العنف، تقول الرسالة: "وما فعل العدو الكافر"، وأيضا: "الذين قهرهم العدو... وفروا بدينهم".

- السبب الاجتماعي الاقتصادي: و هو المتمثل في استيلاء الفرنسيين المحتلين، على أموال الجزائريين وعقاراتهم، تقول الرسالة: "قهرهم العدو واستولى على أملاكهم وبلادهم وفروا بدينهم".

21 ـ الرسالة الأولى مؤرخة في 22 ربيع الأول عام 1246هـ /10 شتنبر 1830
22 ـ الرسالة الرابعة مؤرخة في 8 شعبان عام 1246هـ/ 21 يناير 1831
23 ـ حسني عبد اللطيف، التوجهات الوحدوية في الفكر والممارسة المغربيين خلال القرن التاسع عشر، ضمن أعمال ندوة *مجهودات وإسهامات الأجيال السالفة عبر التاريخ في بناء المغرب العربي*، مكناس 1988. وزارة التربية الوطنية، المملكة المغربية. ص 223.

ـ السبب الديني: ثم تذكر الرسالة، كمعلومة إخبارية، السبب الديني، ليؤلف إلى جانب السببين المذكورين، الثالوث السببي المتسبب في الهجرة الجماعية الجزائرية إلى تطوان، بقولها: "وفروا بدينهم" أي وهجروا بدينهم، للحفاظ عليه من الكفر والكفار الذين دنسوا الأرض الجزائرية وعاثوا فيها فساداً.

هذه أهم الأفكار والمعلومات الإخبارية، التي تضمنتها الرسالة السلطانية المذكورة، وهي أفكار توضح لنا موقف السلطان المولى عبد الرحمان، من ظاهرة الهجرة التي استجدت على ساحة الأحداث بالجزائر، وأثرت على وضعية المغرب وعلاقاته بفرنسا. وهو موقف نابع بطبيعة الحال في جزئه المتعلق بطريقة استقبال المهاجرين، من الواقع، أي أنه استند إلى الأمر الواقع الذي فرضه احتلال الجزائر من جهة، وإلى الثقافة المغربية المتشبعة بالثقافة الإسلامية، التي من أسسها الشريعة المحمدية التي تدعو المسلمين كافة، إلى الوحدة والتعاون في إطار الأخوة الإسلامية الجامعة من جهة أخرى، كما يتبين من قوله تعالى: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً"[24]. وقوله تعالى: "إنما المؤمنون إخوة"[25]. أما في جزئه المتعلّق بالتنظير، لما يُمكن أن تكون عليه الأمة الإسلامية من الوحدة والأخوة الجامعة، فرغم استناده إلى الثقافة الإسلامية السائدة في المُجتمع، فإن هذا الموقف التنظيري للسلطان، كان حينئذ ضربا من ضروب الخيال.

لقد تعامل المولى عبد الرحمان، مع ظاهرة هجرة الجزائريين بنوع من الواقعية، لأن الواقع المغربي بثقافته وممارسته لا يقبل غير هذا، كما تعامل معها بشجاعة وحزم، وأبان عن الحمية الوطنية والهوية العربية الإسلامية، بالرغم من معرفته، بخطر العدو الفرنسي، الذي أصبح يجثم بالقرب منه، ويتطلع إلى المغرب. وقد وصلته أخبار عن تطلعاته وأطماعه وقوته، عن طريق العيون الاستخبارية والجزائريين الواصلين إلى تطوان، وفاس ووجدة والمدن الأخرى. ويبدو أن السلطان كان مندفعا أشدّ الاندفاع، ومتحمسا بكليته في هذه القضية التي أرّقت صناع السياسة في الجزائر كما في المغرب، وكما أنه كان طموحا ومتفائلا، إلى حدّ الاستخفاف بصنائع فرنسا في الجزائر، غير عابئ

24 ـ *سورة سبأ*، الآية 28.

25 ـ *سورة الحجرات*، الآية 10.

بتوسعاتها، وإن كان على دراية بقوتها العسكرية المتطورة، ولكنه لم يخطر على باله يوما، أن فرنسا جاءت بمشروع استعماري واسع وطويل الأمد!.

ب – مضمون الرسالة الثانية: الإدماج

يخبر السلطان المولى عبد الرحمان في هذه الرسالة، قائده على تطوان محمداً أشعاش، بأنه بلغته أخبار عن ورود الجزائريين على تطوان، وأن صفاتهم تؤهلهم لنيل مناصب ومهن مهمة في المجتمع. تقول الرسالة: "فيهم البحرية، والطبجية، والعارفون بصنعة البُنْب، و الكُورة، والمدافع، والمهارس". ونظراً لهذه الصفات، أمر السلطان قائده أن يختبرهم ويضيف "كلّ فريق إلى أهل خِطّتِه"، وأن يعلمه بهم ليتأكد من عمل وتنفيذ القائد بما أمر به، لأنهم إن "أهملوا بقُوا عرضة للضياع". وهذا يدل - حسب منطوق الرسالة - على حرص السلطان على وضعية المهاجرين الجزائريين في تطوان، وحرصه على الاستفادة من مهنهم وخبرتهم في الشؤون المهنية المختصين فيها.

فما هي الفكرة الأساسية المتضمنة في الرسالة ؟

– **الإدماج**: إن فكرة إدماج الجزائريين في المجتمع التطواني، وصَهْرهم فيه، فكرة بارزة، نستنبطها من النص. من تجلياتها حرص السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام، على إدماجهم في المهن والحرف التي يختصون فيها ويجيدونها، لأنهم بذلك سيُحسون في دواخلهم بأنهم يؤدون واجبهم المهني، كما لو كانوا في بلدهم الأصل الجزائر، وكما يُمكنهم أن يفيدوا المجتمع التطواني ويساهموا فيه بفعالية.

ومن تجليات فكرة الإدماج – أيضا – خوف السلطان، من أن يبقى الجزائريون "عرضة للضياع"، إن تعرضوا للإهمال والنسيان من طرف السلطة المخزنية المحلية بتطوان، التي كانت كثيرا ما تخترق الثقافة الإسلامية والعدالة الاجتماعية، إشباعا لنزواتها وتحقيقا لطموحاتها، وهنا لا نخص بالذكر القائد محمد أشعاش بقدر ما نخص حاشيته من الإداريين ضعيفي التكوين والمسؤولية، وكثيري الجشع. لذلك طلب السلطان من قائده، بأن يعلمه بوضعيتهم ومدى تسويتها، مع تأكيده على ذلك بقوله: "وأضف كلّ فريق إلى أهل خِطّته وأعلمْنا بهم ... ولابد".

ويُلاحظ أن الصفات المهنية للجزائريين المعبر عنها في هذه الرسالة، هي صفات عسكرية بالأساس، كانت تطوان بحكم موقعها كثغر مغربي متوسطي في أشدّ الحاجة إليها. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن إصلاحات السلطان المولى عبد الرحمان في الميدان العسكري، والذي لم يدرس إلى الآن، ابتدأه في مدينة تطوان. يقول صاحب الابتسام عن دولة ابن هشام: "وفي سنة أحد وستين [1261هـ] زاد في جيشه العسكر، ولكن لم يتم له نظامه لأنه من أخلاط الناس، وأراد أن يجعله على قانون الترك فلم يستقم له ذلك، لتعذر وجود القانون في المغرب، فأمر عامليه أشعاش وأزطوط بجعل النظام على قانونه المعروف عند الترك فشرعا فيه"[26].

ج - مضمون الرسالة الثالثة: الحرية والتنبيه وحفظ الكرامة

هذه الرسالة الجوابية من السلطان عبد الرحمان بن هشام إلى محمد أشعاش، يخبره فيها بوصول رسالته وصحبتها زمام[27] الواردين على تطوان من أهل الجزائر، وأنه علم من خلالها عدد المهاجرين ومهنة كل واحد منهم. ويأمر السلطان قائده، بأن يترك للمهاجرين الحرية في اختيار المهنة التي تناسب اختصاص كل واحد منهم "فإنهم أحرار. فمن أراد من الطبجية أو البحرية، أن يدخل مع أهل خطته عن طيب نفس منه، فأقبله" وتضيف الرسالة: "ولا تكرهْ أحدا، ومن أراد أن يبقى عند نفسه فهو في سعة، والتجار وأهل الحرف كل واحد يشتغل بمعاشه في خدمة خطته وحرفته".

ومن الأفكار المُعبر عنها، إما تصريحا أو تضمينا، أو تلميحا في نص الرسالة يمكن ذكر:

– الحرية: أغلبية الكلمات الواردة في نص الرسالة، تثبت فكرة الحرية كعنصر أساسي ومحوري من عناصر التفكير السلطاني، ويُقصد بها، حرية الجزائريين في اختيار المهن والوظائف اللائقة بهم، يقول السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام : "فإنهم أحرار... ولا تكره أحدا" ويقول أيضا: "ومن أراد أن يبقى عند نفسه فهو في سعة".

---

26 - *الابتسام عن دولة ابن هشام* المنسوب لإدريس الجعايدي، مخطوط يوجد في الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 12490،ورقة 104 ب.

27 - زمام نشره الفقيه محمد داود في كتابه *تاريخ تطوان*، م . س، المجلد 8. ص 202-206. وقد ورد فيه عدد الواردين على تطوان، وهو 103 فرد من أصول اجتماعية مختلفة.

فبالإضافة إلى ما تحمله هذه الكلمات من قيم الحرية، فإنها ـ أيضاـ تدل على الوعي بأهمية حقوق الإنسان الجزائري على أرض تطوان. هذا الإنسان الذي منحه السلطان، الحق في العمل والحرية في اختيار المهن المناسبة، بحسب إرادته.

ـ **تنبيه السلطات المحلية:** من الأفكار المسكوت عنها ، وإنما نستنبطها من بعض الكلمات الواردة في نص هذه الرسالة والرسالة السابقة، تنبيه السلطان للسلطات المحلية إلى عدم الشطط في استعمال السلطة إزاء المهاجرين؛ وذلك بتركهم يختارون مهنهم بحرية واقتناع شخصي بدون تدخل، وبدون إلزام أو إكراه. وربما يُمكن تفسير هذا التنبيه، ونزوع السلطان إلى هذا النوع من المُكاتبة والمُكاشفة، بإقدام موظفي المخزن المحلي بتطوان على توجيه الجزائريين إلى بعض الحرف والوظائف غير المرغوب فيها، أو أنهم أهملوهم وتركوهم شاردين، ضاربين عرض الحائط أوامر السلطان ووصاياه، ولذلك جاء أمره بصيغة تأكيد ونهي بقوله: "فإنهم أحرار... ولا تكره أحدا"، وقوله : "وأعلمنا بهم ...ولابد".

ـ **حفظ الكرامة:** ومن الأفكار المسكوت عنها، وإنما نستنبطها من نص الرسالة كذلك، حرص السلطان على حفظ كرامة المواطنين الجزائريين، وتحقيق ذاتيتهم وإنسانيتهم، من خلال اختيارهم للمهن المختصين فيها، وتوفير مدخول يسدون به رمق عيشهم، وحرصه على أن تستفيد تطوان من خبرتهم وتجربتهم ، وأن يكون إنتاجهم أكثر وفرة وجودة، يُساهمون به في تنمية المجتمع التطواني خاصة والمغرب عامة، وحتى لا تضيع طاقاتهم ومعارفهم الحرفية أدراج الرياح.

إن فكرة الحرية، وتنبيه السلطات المحلية، وحفظ الكرامة، تنضاف إلى أفكار سياسية واجتماعية سابقة، لتعبر عن المنظومة الفكرية للسلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام. أفكار وممارسات متقدمة في زمانها، في وقت لم يكن هناك قانون مكتوب ينظم حقوق المهاجرين. وإنما كانت هناك أعراف وتقاليد، وثقافة دينية فقهية سائدة، مستقاة من الشريعة الإسلامية والتاريخ والفكر الإسلاميين.

د – مضمون الرسالة الرابعة: التأكيد على فكرة التضامن

يخبر السلطان مولاي عبد الرحمان في هذه الرسالة، قائد تطوان محمدا أشعاش، بأنه توصل برسالته في موضوع باشا الجزائر- الذي طلب من ابن الطالب وكيل الجزائريين بتطوان أن يبلغ رسالة شفوية إلى السلطان يستأذنه فيها بالانتقال إلى المغرب - ويطلب منه، أن يُجيب ابن الطالب على الباشا الجزائري بالكتابة إليه في موافقة السلطان وإذنه، بالسماح له بالانتقال إلى المغرب، تقول الرسالة: "فقل له[28] يكتب له[29] بأنا أذنا له في ذلك" وتضيف الرسالة: "فإن سكناه ببلاد المسلمين أولى ليسمع آذانهم ويلزم جماعتهم ولا يبقى غريبا ببلاد الكفر". فبماذا يمكن تفسير هذا الإذن السلطاني ؟

- **التأكيد على فكرة التضامن** : هذه الرسالة، مثلها في ذلك مثل الرسائل السابقة، تبين مدى أهمية فكرة التضامن التي من معانيها: الوحدة والأخوة، كأفكار نسقية في فكر السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام في سنة1246هـ/1830م، على إثر حادثة احتلال الجزائر، وتعرض أهلها إلى أشكال من العنف والقهر والتسلط والتنكيل، لم يجدوا بدّاً أثناءها من الردّ عليها بأشكال مختلفة، منها المقاومة المسلحة التي قادها الأمير عبد القادر الجزائري وغيره من أهل وطن الجزائر، وكان للمغرب سلطة عليا وشعبا كلمته في المساعدة المادية والمعنوية لهذه المقاومة. كما كان للتطوانيين أدوار طلائعية في هذه المساعدات، كجزء من تضامنهم مع إخوانهم الجزائريين. ومن هذه الردود – أيضا – الهجرة الجزائرية إلى المغرب عامة وتطوان بصفة خاصة سنة1246هـ موافق 1830م. وبما أن هذه الهجرة لم تكن قد استكملت مراحلها في هذه السنة، فإن باشا الجزائر أعلن عن رغبته في الهجرة. ولعله كان يريد الهجرة إلى مدينة تطوان. فأذن له السلطان عبد الرحمان بن هشام، بل ورغبه فيها، وبيّن له محاسن الانتقال إلى بلاد المغرب الإسلامي ومساوئ البقاء "ببلاد الكفر" بتعبير الرسالة السلطانية، وإذا ما انتقل إليه "فلا يرى إلاّ ما يسره". ويذكر السلطان بأن المؤمنين "إخوة"، وكما أنه يُفرّق بين "بلاد المسلمين" و"بلاد الكفر" باعتبار أن الأولى يسود فيها الحكم الإسلامي والشريعة الإسلامية، بينما

---

28 ـ يقصد ابن الطالب المذكور.

29 ـ أي يكتب لباشا الجزائر.

الثانية يسود فيها الحكم والشرائع والقوانين غير إسلامية، ولعل السلطان يقصد بها هنا، دولة إيطاليا التي كان باشا الجزائر قد لجأ إليها في أثناء احتلال الجزائر. ومن المعلوم أن الفقه الإسلامي كان يُقسّم العالم إلى قسمين، وهما : "دار الإسلام" - أي دولة الإسلام - و"دار الكفر" - أي دولة الكفر - وبقي هذا التقسيم على أساس العقيدة الدينية ساري المفعول في ذهنية وممارسات حُكام العالم الإسلامي في القرن 13هـ/ 19م، وهذا ما نلمسه في الخطاب السلطاني في هذه الرسالة.

هـ - مضمون الرسالة الخامسة: الإدماج

هذه الرسالة السلطانية تدور حول قضايا مختلفة، من بينها أمر السلطان مولاي عبد الرحمان عامله على تطوان بتدريب الجزائريين المهاجرين المختصين في الطبجية، على إعمال علامات للقبائل النائية الواقعة في أحواز تطوان. تقول الرسالة: "واحضرْ العارفين من أهل الجزائر من طبجية تطوان ليتدربوا على ذلك ويتمهروا فيه". وتضيف الرسالة: "ومن ظهرت نجابته أعلمنا به نخصه بالإحسان".

- **الإدماج:** فهذه الرسالة تتضمن – أيضا – كسابقتها[30]، فكرة الإدماج والعناية. أي إدماج الجزائريين المهاجرين إلى تطوان في محيطهم المهني الاجتماعي والاقتصادي. وهي فكرة تتكرر في هذه الرسائل، كما تتكرر في رسائل سلطانية أخرى حررت في سنوات تالية، أي بعد سنة 1830، لتشكل في مجموعها نسقا فكريا موحدا تجاه ظاهرة الهجرة.

كما تتضمن هذه الرسالة، فكرة التضامن مع باشا الجزائر، وترغيبه في الانتقال إلى تطوان لجمع "غربته بأهل الدين" وإخراجه "من بين أظهر المشركين".

وقد سبق للرسالة السابقة أن تطرقت لهذا الموضوع، وستتطرق له– أيضا– رسالة تالية. مما يبين أهمية الموضوع المتراسل في شأنه بين الجهازين المخزنيين المركزي والمحلي.

---

30 - أي الرسالة الثانية.

و – مضمون الرسالة السادسة: التأكيد على التضامن والوحدة

هذه الرسالة من السلطان عبد الرحمان بن هشام إلى القائد محمد أشعاش، يخبره فيها بوصول رسائل باشا الجزائر إلى حضرته العالية، يطلب فيها الهجرة إلى تطوان والسكنى بها، وتأمينه في نفسه، وماله، وأهله، وحشمه.

كما تضم الرسالة معلومات إخبارية، عن بعض ما كان يجري في المشرق الإسلامي. يُفهم منها، أن السلطان كان شديد الاهتمام بأمور المسلمين شرقا وغربا، خصوصا في مثل هذه الظروف الدولية المُضطربة، التي كانت تُنذر بأزمات حادة على مستوى العالم العربي الإسلامي، حيث قال: "ومن لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم".

ومن خلال هذا المضمون نستنتج أنه يدور على فكرتين أساسيتين، وهما:

ـ **التضامن والوحدة:** فكرتان أساسيتان لاحظناهما في الرسائل السابقة، ولكن في صيغ جديدة. وتتجليان في الإذن لباشا الجزائر- الذي طالما عبّر عن رغبته في الهجرة إلى تطوان كتابة دون تنفيذ- بالانتقال إلى تطوان والسكنى بها، هو وعائلته وذويه كما مرّ.

وهذا النوع من التضامن، هو ما عبّر عنه الفقهاء المغاربة في كتاباتهم واجتهاداتهم الفقهية، إزاء ظاهرة الهجرة الجزائرية، وفي مقدمتهم علي بن عبد السلام التسولي في أجوبته الفقهية السياسية، على أسئلة الأمير عبد القادر الجزائري، لينسجم بذلك فكر السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام بالإسلام فقها وثقافة.

المبحث الثالث: قيمة الوثائق المخزنية

1 ـ الأطروحة السلطانية في مواجهة الأطروحة الاستعمارية

إن المواقف والأفكار التضامنية والوحدوية المعبر عنها في هذه العينات من الرسائل، تعدُّ من صميم السياسة الاجتماعية الداخلية المعتبرة للسلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام، تجاه الجزائريين المهاجرين إلى تطوان ومدن مغربية أخرى، تُفنّد أطروحة التأليف الاستعماري الذي ذهب عكس هذه الأطروحة المخزنية، ونصّ على الإهمال واللامبالاة التي عومل بها الجزائريون في المغرب، سواء من طرف المخزن أو

السكان. وعلى سبيل المثال لا الحصر يقول ميشو بيلير : "إن المهاجرين الجزائريين أقاموا أوهاماً كثيرة وآمالا عريضة حول الاستقبال الذي يمكن أن يخصص لهم من طرف المغاربة، لكن الواقع أثبت عكس ذلك، فبالرغم من الخاصية الدينية التي دفعتهم إلى الهجرة، فقد استقبلوا ببرودة وبنوع من الحذر والريبة سواء من طرف المخزن المغربي أو الشعب، فقد اعتبروا كأجانب على أرض المغرب، وعوملوا بنوع من الاحتقار بالنظر إلى أنهم انهزموا أمام الكفار النصارى"[31]. وفي نفس الاتجاه، ذهب الضابط الفرنسي Mougin في تحليله لموضوع هجرة الجزائريين إلى وجدة، في أحد تقاريره المرفوعة إلى السلطات الفرنسية في الجزائر[32].

إلا أن هذه المزاعم والافتراءات، التي تعبر عن الأطروحة الاستعمارية المغرضة، سرعان ما تتحطم أمام مضامين هذه الوثائق المخزنية، وأمام واقع وضعية الجزائريين وسيرورتها عبر التاريخ، في تطوان، ووجدة، وفاس وغيرها من المدن المغربية، دون إنكار بعض الاستثناءات الاجتماعية.

وكل هذا يبين بجلاء، التعارض بين الأطروحة المغربية الرسمية والأطروحة الرسمية الفرنسية، التي كانت تحركها الأغراض والأطماع الإيديولوجية الاستعمارية.

2 ـ أهمية الوثائق المخزنية في تاريخ الهجرة الجزائرية إلى تطوان

في الواقع، تعد هذه الوثائق المخزنية السلطانية وغيرها التي كُتبت في وقت لاحق، وهي غنية بالمعلومات التاريخية عن هجرة الجزائريين إلى تطوان، مصدراً أساسيا للتاريخ الاجتماعي لمدينة تطوان في منتصف القرن الثالث عشر الهجري موافق العقد الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي، خاصة في الجانب المتعلق بالهجرة المذكورة. فهي – أي الرسائل – تعتبر مصدراً فريداً لا يعادله مصدر آخر بالرغم من شدة الاختصار والإيجاز الذي نجده في بعض الرسائل، لكنه – على العموم – إيجاز مقبول،

---

[31] - Michaux – Bellaire, Les Musulmans d'Algérie au Maroc, in *Archives Marocaines.* Paris 1907, Volume XI. P : 5.

[32] - Mougin (capitaine), Les Algériens à Oujda, in *Renseignements coloniaux et documents.* N° 9 septembre 1908. P : 191.

بحكم قواعد المراسلة الإدارية المخزنية التي من مميزاتها الاختصار في القول، تبعاً للمأثورة "خير الكلام ما قلّ ودلّ"، وهذا حال الرسائل التي بين أيدينا.

نقول : ما أتت به هذه الرسائل، يعدُّ فريداً في بابه؛ فلم نجد هذه المعلومات وأمثالها، ما يعادلها قيمة وأهمية، في المصادر العديدة التي أرّخت للجزائر والمغرب، كالمرآة لحمدان بن عثمان خوجة الجزائري، وطرسُ الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر لأبي حامد العربي المشرفي، والجيْش العرمرم الخماسي لمحمد أكنسوس، والابتسام عن دولة بن هشام المنسوب لإدريس الجعايدي، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري، وغيرها .

ولم تُستثن من هذه القاعدة، الكتابات الاستعمارية الفرنسية التي اهتمت بموضوع المهاجرين الجزائريين إلى المغرب، والتي اهتمت على الخصوص بالجزائريين المهاجرين إلى فاس ونواحيها ووجدة والقصر الكبير.

وكل هذا، يثبت الأطروحة التي تدافع عن أهمية الوثائق المخزنية في تأريخ تاريخ تطوان الاجتماعي، فيما يتعلق بالجزائريين في تطوان من جهة، وقيمتها التأريخية للمغرب والجزائر من جهة أخرى. ولتبيان هذه الأطروحة ندرج أمثلة عن ذلك، من خلال استعراض أهم المصادر والمراجع المغربية والجزائرية والفرنسية الاستعمارية:

- المصادر الجزائرية الأصل: فهذا أبو حامد محمد العربي المشرفي(ت 1313هـ/1895م) الجزائري الأصل، والمهاجر إلى مدينة فاس حوالي 1843م، ألف عدّة كتب أغلبها ما زال مخطوطا. تناول في بعضها[33] موضوع احتلال الجزائر ومعاناته النفسية والاجتماعية والمادية القاسية، وسبب هجرته إلى فاس، ومقاومة الأمير عبد القادر. وتكلم عن بعض الأفراد المهاجرين إلى مدينة فاس، إلا أنه لم يتكلم عن هجرتهم إلى تطوان ولو على سبيل الاختصار والذكر.

وكذلك الشأن بالنسبة لحمدان بن عثمان خوجة الجزائري (1189 ـ 1255هـ/1775 ـ 1840م)، الذي ألف كتابه "المرآة" في مهجره بباريس.سنة 1249هـ/1833م، ضمّنه

33 ـ نقصد كتابه المخطوط، *طرسُ الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر*، توجد نسخة مخطوطة منه في الخزانة بالرباط، قسم الوثائق والمخطوطات، رقم 496 ك.

عصارة أفكاره التحريرية وأخبار معاناته ومعاناة الشعب الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي. وكان شاهداً على كل ما حكاه في كتابه، من نفي وتهجير الجزائريين والأتراك. وشاهداً على الهجرة الجزائرية إلى المغرب، ولكنه لم يضمن كتابه معلومات عن الهجرة الجزائرية إلى تطوان. وكل ما قاله في هذا الموضوع هو: "وقد تأكد لي بواسطة الجزائريين القاطنين بمدينة تيطوان وببعض المدن الأخرى للملكة المغرب، أنهم قد أجبروا على مغادرة الوطن بسبب المشاق التي أصبحوا يقاسونها من طرف الفرنسيين، وبسبب الظلم الذي تسلطوه عليهم"[34].

ونفس الشيء ينطبق على محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري الحسني (1256 ـ 1331هـ/1840 ـ 1913م) في كتابه "تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر"[35]، الذي ترجم فيه لأبيه ترجمة مفصلة، وتوسع في ذكر بطولاته ومثالبه وعلاقته بفرنسا والمغرب، ولجوئه إلى شرق البلاد المغربية..إلخ. ورغم أهمية الكتاب وقيمة مواده التاريخية فإنه يفتقر إلى المعطيات عن هجرة الجزائريين إلى تطوان. ولا يُمكن أن نقول، بأن المؤلف كان يجهلها، علما بأنه كان أحد المهاجرين إلى شرق المغرب مع أبيه عبد القادر وحاشيته وأنصاره. وكان بدون شك، قريبا من العائلات والأفراد المهاجرين إلى تطوان، بحكم مركز أبيه كحاكم لبلاد الغرب الجزائري ردحا من الزمن وقرابته من العائلات المهاجرة، فضلا عن علاقته بالسلطة المخزنية المغربية المحلية والمركزية.

أما المصادر المغربية، وهي مؤلفات كُتبت في وقت لاحق من تاريخ الهجرة الجزائرية إلى تطوان، فإنها – أيضا – أغفلت الموضوع. وكمثال على ذلك: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى[36] لمؤلفه أحمد بن خالد الناصري (1251 ـ 1315هـ/1835 ـ 1897م)، فبالرغم من توسعه في ترجمة السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام وتوليه حكم المغرب، وذكر أهم الأحداث المواكبة له، ومنها احتلال فرنسا للجزائر، ولجوء الأمير عبد القادر والقبائل المناصرة لـه، فإنه لم يتعرض لموضوع المهاجرين الجزائريين إلى

34 ـ حمدان بن عثمان خوجة الجزائري، *المرآة*، ترجمة محمد بن عبد الكريم، بيروت، دار مكتبة الحياة 1972، ص7.

35 ـ طبع في الإسكندرية (مصر) سنة 1903. والكتاب يقع في جزأين.

36 ـ طبع في الدار البيضاء سنة 1956، يقع في تسعة أجزاء، صدرت بتحقيق وتعليق ولدي المؤلف: جعفر الناصري ومحمد الناصري.

تطوان، مما يدعونا إلى الكثير من الاستغراب والتساؤل عن هذا الإهمال الذي طال الموضوع من لدن الناصري وأمثاله.

وهناك مصدر لاحق، من المصادر التي تناولت الهجرات الجزائرية إلى المغرب، وهو كتاب "اللسان المُعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب"[37] لأبي عبد الله السليماني (1285 ـ 1344هـ/1868 ـ 1926م). فبالرغم من أهمية الكتاب في تأريخ ظاهرة الهجرة الجزائرية إلى المغرب، فما نؤاخذه عليه هو اهتمامه فقط بالهجرات إلى فاس، وخاصة هجرة التلمسانيين والمعسكريين سنة 1843 – 1844م.

أما المصادر المحلية التطوانية المعاصرة لحادثة هجرة الجزائريين، فلدينا مصدر واحد ووحيد، وهو كتاب "نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان"[38] لمؤلفه عبد السلام بن أحمد السكيرج (ت 1250هـ/34 ـ 1835م). الذي قدّم ترجمة مهمة لبعض أفراد أسرة أشعاش الحاكمة في مدينة تطوان على عهد السلطان عبد الرحمان بن هشام، كعبد الرحمان أشعاش وابنه محمد بن عبد الرحمان أشعاش، إلا أنه لم يتطرق إلى الهجرة الجزائرية إلى المدينة لا من قريب ولا بعيد.

ومنها أيضا المرجع الأساسي والمهم في تاريخ تطوان، وهو كتاب "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين"[39] لأحمد بن محمد الرهوني (1288 ـ 1373هـ/1871 ـ 1953م). والذي ترجم لمجموعة من الجزائريين خاصة الذين تتلمذ عليهم في جوامع تطوان أو كان على معرفة بهم. وما آخذناه عليه في هذا الموضوع، هو أنه أورد بعض التراجم عرضاً في ثنايا كتابه

37 ـ نشر بالرباط، عن مطبعة الأمنية،الطبعة الأولى سنة 1391هـ/1971م. ومنه نسخة مخطوطة تزيد – كثيرا – على المطبوع، توجد في الخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم 297. تقع في 248 ورقة من الحجم المتوسط.

38 ـ كان الكتاب ما يزال مخطوطا مبتورا يوجد في خزانات خاصة عند بعض الأسر التطوانية. وقد أرشدت بعض الطلبة إلى تقديم وتخريج وفهرسة الكتاب المخطوط، تحت إشرافي. فأنجز العمل في السنة الدراسية 97 - 1998. (ثم طبع الكتاب محققا في سنة 2005)

39 ـ توجد نسخة مخطوطة من الكتاب في المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان – قسم المخطوطات، تحت رقم 676 و684.

وفي بداية هذه السنة (2012) بلغ إلى علمي أن د. جعفر بن الحاج السلمي قد انتهى من تحقيق الجزء العاشر من الكتاب ـ وبذلك يكون الكتاب قد حُقق كاملا ـ وصدر ضمن منشورات جمعية تطاون ـ أسمير.

40 ـ انظر: إدريس بوهليلة، العائلات الجزائرية بتطوان من خلال مخطوط عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، مقال منشور في *مجلة كلية الآداب بتطوان*، جامعة عبد المالك السعدي، العدد 10، السنة 2000، طنجة ـ المغرب، ص 309.

أثناء شرح الكلمات العامية التطوانية[40]، ولم يخصص لهم مكانا خاصا بهم كما فعل مع فقهاء وعلماء ومتصوفة تطوان. وبإهماله للكثير من التراجم الجزائرية، خاصة المعاصرة له، يكون قد ترك فراغا في جزء هام من أجزاء تاريخ تطوان الاجتماعي.

وكان محمد داود من أوائل مؤرخي تطوان، الذين اهتموا بالموضوع وخصصوا له حيزا، بإيراده لمجموعة من الوثائق المخزنية ذات الصلة. فكان أكثر المؤرخين المحليين إحساسا وإدراكا بأهمية الوجود الجزائري على أرض تطوان وانعكاساته المحلية والوطنية.

أما الكتابات الاستعمارية الفرنسية التي اهتمت بموضوع المهاجرين الجزائريين إلى المغرب، وهي – على العموم – كتابات محدودة زمنيا وكميا، إلا أنها ثرة ومفيدة من الناحية المعرفية التاريخية، فيما يتعلق بالهجرات الجزائرية، وخاصة التلمسانية إلى مدينة فاس ووجدة. أما الهجرة الجزائرية إلى تطوان، فلم تنل منها أي اهتمام أو عناية. فقد أورد ميشو بيلير على سبيل المثال، اسم تطوان كبلد مستقطب للمهاجرين من العاصمة الجزائرية[41] على سبيل الذكر فقط، دون زيادة على ذلك.

أما جولي (Joly) وهو أحد أعضاء البعثة العلمية الفرنسية بالمغرب، والذي اهتم اهتماماً خاصاً بتاريخ تطوان السياسي والاجتماعي – الاقتصادي، فإنه خالف زميله في البعثة ميشو بيلير الذي كتب عن الجزائريين في فاس، والضابط موجن (Mougin) الذي كتب تقريرا عن الجزائريين في وجدة، إذ أن جولي (Joly) لم يكتب في موضوع الجزائريين في تطوان، إلا ما أورده عرضا وبشكل باهت عن بعض الحرفيين بتطوان من أصل جزائري.

خاتمة

وفي الأخير، نخلص إلى نتيجة تدعم ما ذهبنا إليه، من كون الرسائل السلطانية التي اخترنا منها هذه العينات، تعدّ فريدة في معلوماتها التاريخية، خاصة وأنها كانت معاصرة لحادثة احتلال مدينة الجزائر وهجرة أهلها منها إلى تطوان. مما يجعل من هذه

---

[41]. Michaux - Bellaire, ibid., P : 5.

الرسائل تؤرخ ليس لتاريخ تطوان الاجتماعي من خلال تناولها للظاهرة الهجرية، وإنما أيضا، للتاريخ الجزائري في سنة 1246هـ/1830م. وهذا، ما لم نقف عليه لا في المصادر الجزائرية نفسها ولا المغربية أو الفرنسية.

وكل هذا يثبت القول بأهمية الوثائق المخزنية في تأريخ تاريخ تطوان الاجتماعي، وقيمتها التاريخية للمغرب والجزائر على حدّ سواء.

ومن مميزات هذه الوثائق، أن لغتها لغة واقعية. تستند إلى الواقع التاريخي، بدون مجاملات أو مدح وإطراء، الذي قد نلحظه في كتابات مؤرخي البلاط السلطاني، كما هو الحال بالنسبة لأكنسوس في كتابه "الجيش العرمرم" وإدريس الجعايدي الذي يُنسب إليه كتاب "الابتسام عن دولة ابن هشام" وغيرهما.

فهي وثائق أوثق وأصدق، في لغتها، ومعلوماتها، وأفكارها. بعيدة كل البعد عن التصنع، والمحاباة، وتضخيم الحادثة. فضلا عن كونها تحدثت بواقعية وعفوية، وبشكل مباشر عن ظاهرة استجدّت على الأرض التطوانية، وهي ظاهرة الهجرة الجزائرية.

وهي – أيضا – وثائق، تقدم لنا صورة عن الظاهرة من الداخل ولأجل الداخل. أي أنها تصف الظاهرة من خلال المعاينة المخزنية المغربية، وتحاول إيجاد حلول ناجعة لها، بالارتكاز على فكر السلطان وسياسته الداخلية، في تسيير شؤون رعيته.

وما يمكن أن نؤاخذه عليها، هو الاختصار والإيجاز، وتضمنها لأفكار أحادية الجانب وبعضها خيالي واندفاعي حماسي، دون إيراد أفكار الطرف المتلقي، الذي كان له – أيضا – مكانة لا يستهان بها على مستوى تسيير شؤون المخزن في مدينة تطوان، ودون ذكر اجتهادات مستشاريه من الكُتاب والوزراء، مما ينفي عن هذه الرسائل، مطلب الشورى والتشاور والأخذ والعطاء في الممارسة السياسية.

ومن المآخذ ـ أيضا ـ على الوثائق المخزنية، ما قاله المؤرخ جرمان عياش: "إن القارئ يصطدم إزاءها في كل حين بألفاظ وتعابير غريبة، لا يستطيع توضيحها أي معجم أو مخبر، مما يجعلها أحياناً تحجب معنى نص بكامله"[42]. وقوله أيضا : "فالوثيقة [المخزنية] لا تفضي لك دفعة واحدة لكل أسرارها، وبذلك لا يمكن الإسراع في تسجيلها للانتقال إلى

42 ـ جرمان عياش، *دراسات في تاريخ المغرب*، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ط. 1. 1986، ص 68.

الوثيقة الثانية. ومن الممكن أن يتطلب الأمر إعادة تمحيصها عشرات مرات كلما تجد بعض التوضيحات من مصدر آخر"[43].

وبالرغم من هذه المآخذ، فإن الوثيقة المخزنية، تبقى لها الكلمة الأساسية في تار تاريخ المغرب، إن على المستوى المحلي أو الإقليمي أو الوطني وكذلك الدولي ، ونظ لهذه الأهمية الكبرى التي تكتسيها الوثائق المخزنية، يقول جرمان عياش: "نقدر ك تقدير ضرورة إعطاء الكلمة الأولى للوثائق المغربية، فهي وحدها ستساعدنا على تقد: وجهة نظر جديدة سيظهر من خلالها المغرب كموضوع في حد ذاته لا لغيره كما يقول الفلاسفة"[44]. ويقول - أيضا - الفقيه ومؤرخ تطوان محمد داود : "وبهذه المناسبة نود لو تتوجه عناية إخواننا رجال العلم والأدب في مختلف نواحي المغرب لجمع وثائق التي له علاقة بمدنهم وقبائلهم ورجالهم وأعمالهم. ثم تأليف كتب تاريخية ولو خاصة مختلف الجوانب، إذ بذلك تسهل في المستقبل كتابة التاريخ العام الشامل لوطننا المغرب العزيز"[45].

---

43 - جرمان عياش، م . س، ص 70.

44 - جرمان عياش، دراسات، م . س، ص 77.

45 - داود محمد، *تاريخ تطوان*، م .س، المجلد الثامن. ص 10.

الفصل الثاني

الجزائريون في المغرب وحرب تطوان *

مقدمة

كيف كان موقف الجزائريين المهاجرين إلى المغرب من حرب تطوان؟ وما هي آراؤهم حول الاستعمار الإسباني؟ وما مدى تعلقهم بنظام الحكم بالمغرب؟ وما مدى إيمانهم بقضية الوحدة المغربية واستقلال المغرب في وقت كانوا يعيشون تحت سمائه ويستظلون بسلطانه؟ هل يمكن أن نُصدق ما قيل في شأنهم بأنهم كانوا عملاء فرنسا والاستعمار عامة؟ هل يُمكن أن نساير من شكّ في هويتهم وهم على أرض المغرب؟ بل والأكثر من ذلك، هل بالفعل كانوا السبب المُباشر في احتلال فرنسا للمغرب عام 1912م بما قدّموه لها من عون ومساندة؟

هذه بعض الأسئلة الإشكالية، التي تروم هذه الدراسة منصبة الإجابة على بعضها، حسب طبيعة الموضوع المدروس واستنباطاتنا، من خلال تحليل نماذج من كتابات المهاجرين الجزائريين إلى المغرب، وبالتحديد إلى مدينة تطوان ومدينة فاس في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري موافق النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، والتي تنم عن موقفهم الصريح من الغزو الإسباني الاستعماري لتطوان سنة 1276هـ/1859 ـ 1860. وليس غريبا أن تُبدي للقارئ والمتتبع لقضايا الجزائريين في المغرب عن مدى تشبثهم بوطنيتهم وقوميتهم المغربية العربية الإسلامية. وإن قراءتنا لموقفهم ـ المعبر عنه في كتاباتهم ـ جعلنا نكون في موقع ردٍّ على بعض النظريات والأحكام المُسبقة والمتسرعة، إما لأجانب فرنسيين كانوا يعملون تحت ضغط الفكر الاستعماري

---

* شاركتُ بهذه الدراسة في ندوة دولية في موضوع حرب *تطوان* (1859 -1860)، والتي جرت يومي 14 و15 ماي سنة 2009، برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان . ونشرت ضمن أعمال الندوة، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، سنة 2010، ص35 ـ 50 .كما نشرت ضمن الكتاب الجماعي ـ العدد4 ـ لشعبة التاريخ والحضارة، تنسيق مصطفى بنسباع ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان سنة 2010، ص 67 ـ 88.

المُتنامي، وإما لباحثين مغاربة مُحدثين متأثرين بهذا الفكر بطريقة أو أخرى، لم يستوعبوا كتابات المهاجرين الجزائريين أنفسهم. وإنما طفقوا يبحثون في الزلات والسلبيات دون تمحيص وتدقيق ونقد تاريخي. وتتلخص أطروحتهم، في كون هؤلاء الجزائريين كانوا خير معين للاستعمار في استحواذه على المغرب وانسياقهم وراءه في تنفيذ مخططاته. بل والأكثر من ذلك، هناك من الباحثين من كانت له قراءة خاصة لكتابات بعض الجزائريين، جعلته يتشكك في هويته . وإذا كانت أطروحة الانسياق هذه تنطبق على بعض الجزائريين ـ وهذا البعض كان يشكل القلة القليلة من المهاجرين ـ فإنها لا تنطبق على الغالبية العُظمى منهم والذين آثروا الاستقرار في المغرب والمساهمة فيه كل حسب طاقته واختصاصه بكل ما هو إيجابي ـ دون إغفال بعض السلبيات بطبيعة الحال ـ خاصة قبل معاهدة الحماية سنة 1330هـ/1912م. ومن النماذج على هذا التوجه الإيجابي، ما وصلنا من كتابات لمهاجرين جزائريين حطوا رحالهم في المغرب، والتي سنتناول نموذجين منها. وقبل ذلك، نلقي نظرة سريعة على طبيعة الكتابات التاريخية التي أُلّفت في الموضوع.

المبحث الأول: مسألة الكتابات التاريخية حول الجزائريين في المغرب

ما يلفت الانتباه في الكتابة التاريخية المغربية المعاصرة، أنها لم تستطع التحرر من النظريات والأطروحات الاستعمارية، إلى الآن وحتى الآن، في جملة من الموضوعات التاريخية الاجتماعية والسياسية، ومنها على سبيل الذكر، موضوع : الجزائريون في المغرب في القرن 13هـ/19 م، ومواقفهم الفكرية والسياسية تجاه الاستعمار الغربي عامة والاستعمار الفرنسي خاصة، وبالتالي مواقفهم إزاء وحدة المغرب واستقلاله. ودليلنا على ذلك، أنه في بداية القرن العشرين، توجهت أنظار السياسيين الفرنسيين بشكل ملفت للجزائريين بالمغرب، فعند إنشائهم البعثة العلمية في طنجة (1904) المتشبعة بالإيديولوجية الاستعمارية وبالأساليب والمناهج البحثية الحديثة، جعلت من ظاهرة الوجود الجزائري بالمغرب وأهميته، موضوعا يحتل مكانة خاصة ضمن الموضوعات

الاجتماعية المدروسة، والتقارير السياسية المرفوعة إلى المسؤولين الاستعماريين، عملت على نشرها في مجلات متخصصة تعبر عن لسان حالها أهمها: مجلة الوثائق المغربية (Les Archives Marocaines) الصادرة منذ سنة 1904م، ومجلة العالم الإسلامي (Revue du monde Musulman) ومجلة الاستخبارات الاستعمارية (Revue Renseignements coloniaux) وغيرها. قدمت هذه الكتابات وجود الجزائريين بالمغرب، وموقفهم من القضايا الوطنية - ومنها الوحدة المغربية - وعلاقتهم بالمغاربة سلطة مخزنية وشعبا، في صورة نمطية يغلب عليها طابع الصراع المستمر والنفور المتبادل والتفرقة...إلخ. فعلى سبيل المثال، يذهب الضابط الفرنسي موجان (Mougin) في أحد تقاريره عن الجزائريين بوجدة إلى أن هؤلاء عوملوا أسوء معاملة من طرف أهل وجدة والسلطات المخزنية المحلية على السواء، وأن المغاربة اعتبروا الجزائريين أجانب، بل ونعتوهم بأقبح النعوت مثل: "أصحاب النصارى"[46]. هذه الوضعية المزرية - حسب هذه الكتابات - هي التي جعلت الجزائريين ينقادون بسهولة ويسر وراء الدعاية الفرنسية وإغراءاتها ويعملون على تحقيق مطمح فرنسا في استعمار المغرب، كل حسب موقعه. فمنهم من انخرط في السلك الديبلوماسي (القنصليات) الفرنسي بالمغرب، ومنهم من دخل تحت الحماية القنصلية الفرنسية، ومنهم من ساند الفرنسيين ومشروعهم فكريا وإعلاميا، وروج لمفهوم تسامح الفرنسيين وعدالتهم، ورغبتهم في تطوير وإنماء المغرب.

فإذا كانت هذه النظرة التحليلية، صادرة عن مفكرين ومثقفين، كانوا يعدون من رواد رجالات الفكر الاستعماري، عملوا ما في استطاعتهم من أجل فكرة استعمار المغرب، فماذا يمكن القول عن الباحثين المغاربة المحدثين؟ صدر أخيرا (سنة 2008) كتاب تحت عنوان :"الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830 - 1962 " لصاحبه محمد أمطاط، وهو في الأصل أطروحة لنيل الدكتوراة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، أكدال - الرباط، ونال الجائزة الأولى لأحسن أطروحة

---

[46] Capitaine Mougin , Les Algériens à Oujda , in *Renseignements coloniaux* , septembre 1908 , Paris. p 191.

نوقشت في المؤسسة المذكورة خلال السنوات الخمس (2002 ـ2007). ماذا نلاحظ في هذا الكتاب؟ في البداية نرى أنه من الواجب الإشادة بهذا الإنجاز الفريد، وتقدير المجهود الضخم الذي بذله الباحث تنقيبا عن الوثائق والمصادر وتحليلا لمضامينها. إنه الكتاب الأول الذي يصدر حول تاريخ الجزائريين بالمغرب بهذا الحجم والتحليل، وإن كنا من السباقين إلى البحث في هذا الموضوع ابتداء من حوالي سنة 1988، وكما نشرنا بعض الدراسات والعروض منذ سنة 2000 تخص هجرة الجزائريين إلى شمال المغرب، وبالتحديد إلى مدينة تطوان خلال القرن 13هـ/19م. ومع ذلك، فإليه يرجع الفضل في جمع هذا الكمّ من المعلومات ودراستها دراسة تاريخية، استندت إلى المنهج الحولي، اعتمادا على مصادر ومراجع مختلفة بالعربية والفرنسية مع تغليبه لهذه الأخيرة والتي ـ لهذا السبب ـ ستتحكم في نتائج بحثه، كما سنشير إلى ذلك بعد قليل. لقد عالج الموضوع بجرأة باحث يريد الوصول إلى الحقيقة التاريخية، إلى طبيعة وجود الجزائريين بالمغرب وأصول هذا الوجود في التاريخ المغربي المعاصر، وإسهاماتهم فيه سياسيا وعسكريا. ظنّ الباحث أمطاط في الوهلة الأولى، أنه موضوع سهل المنال يسير التحليل والتركيب. ولم يُدرك أنه موضوع شائك، يطرح الكثير من الاستفهامات، ويثير الكثير من الحزازات. فنظر الباحث إليه نظرة دارس في التاريخ السياسي الاستعماري، دون أن يفصح عن ذلك أو يُبيّن الجوانب التي ستكون محور دراسته. لأن مثل هذا الموضوع عريض المادة المعرفية التاريخية وكثير التشعب في مضامينه. فجاء الكتاب ـ في تقديرنا ـ ناقصا، خاصة في جوانبه التاريخية الاجتماعية، والثقافية والاقتصادية والحضارية بصفة عامة. لذا كان على الباحث أن يُصيغ عنوان كتابه حسب ما يُطابق مضمون متنه، أو يضيف إلى هذا العنوان ما يوضح أنه سيقتصر على الجزائريين العملاء للفرنسيين أو سياسة استقطاب الفرنسيين للجزائريين بالمغرب ونتائجها، أو غيرها من العناوين التي تُبيّن انكباب الباحث على هذا النوع من الدراسات التاريخية. والملاحظ كذلك، أنه في الوقت الذي تعوزنا فيه النظرة الوطنية لتاريخ المغرب الكبير في موضوع الجزائريين في المغرب، طلع علينا المؤلف ببحث دافع فيه ـ عن وعي أو غير وعي ـ عن الأطروحة الفرنسية الاستعمارية، التي ما فتئ كتاب المغرب ومؤرخوه يدحضونها وينتقدونها في كل مناسبة؛ لقد بيّن

باعتماده وتغليبه للوثائق الاستعمارية - وقد بذل جهدا كبيرا في جمعها وترتيب موادها المعلوماتية - واتخاذه لنماذج محددة من الجزائريين، انسياق هؤلاء نحو مشروع الفرنسيين في العمل على احتلال المغرب، فقدموا لهم كل العون والمساعدة. وبذلك كان لهم الدور الحاسم في إنجاح مخطط فرنسا في فرض الحماية عليه في سنة 1912[47]. بهذا يكون المؤلف، قد أعاد إحياء أطروحة الفكر الاستعماري الفرنسي عن دراية أو غير دراية، والفرق بين الأطروحتين أن الأولى كتبت بشكل ممنهج ومؤدلج، والثانية كتبت بشكل عفوي واعتباطي - وإن كان قد اتبع المنهج الحولي في ترتيب مواد موضوعاته - وبجرأة باحث يريد أن يؤسس لنفسه طريقا في البحث التاريخي، وقد نجح في ذلك، في موضوع صعب المنال تتجاذبه حقول علمية ومعرفية متعددة: علم التاريخ، والسياسة، والأنثربولوجيا الثقافية، وعلم الاجتماع، والجغرافية التاريخية البشرية، والديمغرافية التاريخية وغيرها. والنتيجة، إنتاج كتاب مفعم بالمعلومات الاستعمارية حول الجزائريين في المغرب، بشكل لا يخدم تاريخ المغرب الأقصى وما بالك بالنسبة للمغرب الكبير في التاريخ المعاصر والمستقبل، في وقت ما أحوج بلدانه إلى الوحدة على المستوى الفكر والممارسة، وهي ما تعوز جل الفاعلين السياسيين وبعض المثقفين في هذه البلاد.

---

47 - انظر على سبيل المثال عناوين فقرات الفصل الثالث التالية :
1 - الوسائل والظروف المساعدة على الاستقطاب الفرنسي للجزائريين.
2 - ردود فعل الجزائريين إزاء إغراءات الحماية والتجنيس.
3 - أدوار بعض الجزائريين لصالح" التسرب السلمي " الفرنسي.
4 - فرنسا و الجزائريون وتوجيه المغرب نحو الحماية بين سنتي 1902 -1912.
3 - أدوار بعض الجزائريين لصالح "التسرب السلمي" الفرنسي.
3 - 1 - خدمات الجزائريين الموظفين في المصلح القنصلية الفرنسية.
3 - 1 - 1 - عبد السلام الشاوش.
3 - 1 - 2 - علال العبدي.
2 - 3 - الاستيطان الزراعي.
3 - 3 - الغزو التجاري.
3 - 4 - تسخير الزوايا.
3 - 5 - نشر التعليم الفرنسي: المدارس العربية الفرنسية.
محمد أمطاط، *الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830-1962: مساهمة في تاريخ المغرب الكبير المعاصر*، الرباط، 2008 دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص93 - 117 - 119 - 121 - 124 - 127 - 129 .

و في اعتقادنا، أنه من الإشكاليات التي ما زالت مطروحة في موضوع الجزائريين في المغرب في القرن 13هـ/19م، والتي لم تُدرس بعناية وافتحاص ونقد، مواقفهم إزاء الاستعمار الأوربي عامة والاستعمار الفرنسي والإسباني بصفة خاصة ومن ثم مواقفهم تجاه الوحدة الوطنية المغربية والاستقلال. وهي إشكالية لم يتطرق لها أي باحث. فإذا كانت بعض المصادر- التي ألفها جزائريون استوطنوا بالمغرب أو ازدادوا فيه - قد تم اعتمادها في كتابة تاريخ المغرب فإنها لم تُستغل بعدُ في كتابة تاريخ الجزائريين بالمغرب عامة وفي فك الإشكالية المطروحة خاصة، بالرغم من قيمتها المعرفية التاريخية والوثائقية. لهذا آثرنا الخوض في هذه الإشكالية، لتوضيح بعض غوامضها. ومن أجل ذلك اخترنا مؤلفين إثنين، من أصول جزائرية هاجرا إلى المغرب وعاشا فيه: الأول استقر به المقام في مدينة تطوان، والثاني في مدينة فاس. وسيأتي التعريف بهما بما له صلة بالموضوع. سوف نقدم في إطار الإشكالية المذكورة، قراءة في أفكارهما كممثلين لأفكار وتوجهات الجزائريين في مغرب القرن13هـ/19م، في أوقات الأزمات واحتلال الأوطان. بمعنى أننا سننظر إليهما، باعتبارهما نموذجين لتطور الفكر السياسي عند الجزائريين في المغرب، في محاولة لمعرفة مدى حضور وعيهما الوطني والقومي الوحدوي أو العكس، من خلال آرائهما التي أورداها في كتابيهما حول حادثة حرب تطوان. وهي الحادثة التي مزقت أوصال الجسد المغربي، وكثر المقال فيها، في أسبابها وتطوراتها وأبعادها الوطنية والإقليمية والدولية، ونتائجها، وبالتالي سنحاول مقاربة مواقفهما من الاستعمار الإسباني في حرب تطوان مقاربة تاريخية، خاصة وأن كلا المؤلفين عاصرا الحرب. الأول كان شاهد عيان عليها، بل جرب مرارتها وكان من الممتحنين فيها. والثاني كان حينئذ في فاس وهو ابن العشرين سنة، فسمع عن الحرب - وهو في جامع القرويين - أخبارها وعاين صداها لدى طلبة فاس، وعلمائها وفقهائها، وسكانها.

ومن المعلوم، أن المغرب سيدخل مع حادثة حرب تطوان ونتائجها، في عهد جديد على المستوى المحلي والإقليمي والدولي. سيدخل مضطرا ومرغما على أنفه في التاريخ المعاصر، بل وبالعنف والإكراه والقسوة. لكنه سيدخل في التاريخ العالمي. هذا العهد المميز للتاريخ العالمي أول من سيحس به هو المؤسسة السلطانية، لأنها أول

مؤسسة ستتعرض للضغط الخارجي، وستتعرض لأوامر وقرارات خارجية لا ترغب فيها، وتلح عليها في تنفيذها. وهذا الإحساس، سيتعدى السلطان وحاشيته إلى النخبة المثقفة، والتي كانت تتألف فضلا عن المغاربة من بعض المهاجرين الجزائريين.

المبحث الثاني: كاتب جزائري مجهول ومذكرته عن حرب تطوان

كتبت مذكرة حول حرب تطوان، من طرف شخص مجهول، يُعتقد أنه أحد الجزائريين القاطنين بتطوان في أثناء الوجود الإسباني في المدينة، في أعقاب الحرب بتاريخ آخر ربيع الأول عام 1278هـ/1861م. هذا ما استنتجه الفقيه محمد بن تاويت، من خلال منطوق المذكرة، ومن علامات ذلك أن المؤلف صاحب المذكرة "يعرض لمسائل جزائرية أولها اتصال بالجزائر، ولربما أتى في صلب كلامه ببعض الكلمات التي كانت معروفة في الجزائر ولم تكن معروفة في المغرب، وهو بالرغم من قصوره في الثقافة مطلع على شؤون الأتراك ملم بمواقف رجالهم. فالظاهر أن تلك المعلومات أتته من الثقافة الشعبية التي كانت منتشرة وسط الجزائريين في تلك الأوقات والتي كانت جزءا منها يعود لوجود نسبة مهمة من الأتراك العثمانيين فضلا عن السلطة الحاكمة بالبلاد . زيادة على ذلك فهو يذكر بعض الأبيات منسوبة إلى جزائري كان مستوطنا بتطوان، وربما كان هذا الجزائري هو نفسه"[48]. ويضيف ابن تاويت: "ومما يزيد استنتاجنا قوة هو أنه لم يذكر شخصيات تطوانية كان لها بعض الذكر الحسن، وهذا ما يخالف طبيعة التطوانيين الذين يحرصون دائما على تخليد أسماء رجالهم. على أنه يتحسر لتطوان ويدافع عنها بعض الشئ ولكن كل ذلك في فتور لم يعهد من تطواني على الأقل"[49] ويمكن أن نزيد على ما ذكره ابن تاويت، لتأكيد الاستنتاج على الانتماء الجزائري لصاحب هذه المذكرة، أن هذا الأخير كان يروي في مذكرته مشاهداته لأفعال الفرنسيين في بلاد الجزائر على إثر احتلالهم لها، ومن ذلك قوله: " أما ترى الفرنسيس في أرض الجزائر

48 ـ محمد بن تاويت، وثيقة تاريخية عن تطوان، *مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية*، العدد الأول، تطوان 1956م، ص17.

49ـ نفسه.

عنده حراس وجسسا على الأجنة ربما يقطع منها شجرة حتى إذا كان صاحب البستان قطع في بستانه من غير مشورته ووقوف أهل المعرفة تلزمه العقوبة على قطع ذلك"[50]، وقوله :" وعند دخوله ـ يقصد الفرنسيس ـ إلى الجزائر هد ديارا وحوانيتا حتى وسع الطريق"[51]. ولعل الكاتب ينتمي إلى مدينة الجزائر، شاهد حرب دخول الفرنسيين إليها في صيف 1246هـ/1830م، وعانى منها كسائر أهل الجزائر، ثم لما تبينت له نوايا المستعمرين، ولم يستتب الأمن، هاجر مع من هاجر من أهل الجزائر العاصمة، وتوجهوا إلى مدينة تطوان التي استقبلت عددا وافرا منهم. ولعل هجرته كانت فيما بين سنتي 1843 و1844م، في أثناء لجوء الأمير عبد القادر وأتباعه إلى شرق المغرب، حيث تبعتهم قبائل وجماعات من مختلف أصقاع ومدن الجزائر، وتفرقوا في بلاد المغرب ببواديه وحواضره. فتكون بذلك هجرة الكاتب متزامنة مع هجرة محمد المشرفي من مدينة المعسكر ـ النموذج الثاني في هذا العرض ـ الذي كان حديث السن، واختارت عائلته النزوح إلى فاس. ويبدو من خلال نص مذكرة حرب تطوان أن الكاتب اندمج في المجتمع التطواني، واحتل مكانة محترمة فيه. فقد استطاع أن يمتلك إحدى الدور والبهائم والأثاث المعتبر. ومن علامات ذلك على سبيل المثال، أن بعض كبراء الإسبان المحتلين لتطوان، طمع في هذا الأثاث وسلبه منه وأرسله إلى إسبانيا على سبيل البيع. كما أنه كان ممن عانى من سلبيات المستعمرين الكثيرة، فزيادة على سلب متاعه، فقد تعرض للمضايقة، وسوء المعاملة والإهانة، بل والضرب من طرف العساكر والحراس الإسبانيين في أبواب تطوان في مناسبات عديدة. ومع ازدياد صعوبة الإقامة والاستقرار بتطوان في ظل الاحتلال، اضطر الكاتب إلى الهجرة بعائلته إلى شفشاون (سنة1861)، وبعد شهور عاد إلى تطوان، كما روى ذلك بنفسه في مذكرته التي ملأها نقدا وانتقادا للإسبان، وبالمقابل فقد كان ذكره لأهل تطوان والمخزن ذكرا جميلا.

أما مذكرته حول حرب تطوان، فقد كانت مجلة الأندلس الصادرة في مدريد سنة 1934م سباقة إلى نشر القسم المنثور منها، مترجما إلى اللغة الإسبانية مع تقديم وتعليق

50 ـ محمد بن تاويت، م .س، ص 42.

51 ـ نفسه.

بقلم الإسباني Reginaldo Ruiz Orsatti، ثم لما اطلع الفقيه محمد بن تاويت على نص المخطوط لهذه المذكرة، نشره كاملا في مجلة تطوان، في العدد الأول الذي صدر بمدينة تطوان سنة1956م، السابق الذكر - وهو النص الذي اعتمدناه في العرض - ثم أثبت مؤرخ تطوان الفقيه محمد داوود نص المذكرة المنشور مرفقا بترجمة لتعليق الإسباني المذكور، في كتابه تاريخ تطوان[52].

وهذه المذكرة، مشحونة بمواقف صاحبها تجاه الأوضاع المُستجدة على أرض تطوان يومئذ. وما يهمنا هنا، هو موقفه من حرب تطوان أولا، ومفتعليها الإسبان ثانيا، وموقفه من سلطان المغرب ثالثا.

1– موقفه من حرب تطوان

يجمع المؤرخون المغاربة، على أن من بين أكثر الحروب تأثيرا في المغرب، حرب تطوان في سنة 1859-1860، وما أعقبها من نتائج وخيمة نفسيا، واجتماعيا، واقتصاديا، وسياسيا. وكان أول من أحس بثقل هذه النتائج، السلطان المغربي وحاشيته والعلماء والمثقفون، ومن بينهم الكاتب الجزائري المجهول - الذي نحن بصدده - والذي كتب مذكرته في خضم هذه الحرب وفي أعقابها. ومن الأهمية بمكان تبيان موقفه، الذي لا يعبر عن موقف تطواني مغربي صريح أصيل، ولاعن موقف إسباني أو أنه يميل إليه. باعتباره ينتمي إلى تشكيلة اجتماعية جزائرية جديدة، انضافت إلى المجتمع التطواني في القرن13هـ/19م. فربما ستكون نظرته أكثر اعتدالا، وموضوعية، وصراحة، من المنظورين المغربي والإسباني. وأهمية نظرته ومواقفه تتجلى في كونه شاهد عيان على الحرب، ومرّ بتجارب مُرّة في مختلف أطوارها وصورها.

من خلال عرض الكاتب المجهول لأسباب الحرب ومآلها، يتوضح أنه أرجع مسؤولية الحرب إلى الطرف الإسباني، وأن بناء الجدار - حسب تعبيره - على حدود سبتة، ما هو إلا وسيلة اختلقها الإسبان من أجل التوسع في شمال المغرب، اختاروا لحظتها بدراسة وعناية - في وقت وفاة السلطان المغربي عبد الرحمان بن هشام - وأن

[52] - انظر محمد داوود ، *تاريخ تطوان*، المجلد 5، تطوان 1965، مطبعة المهدية، ص 277 - 300.

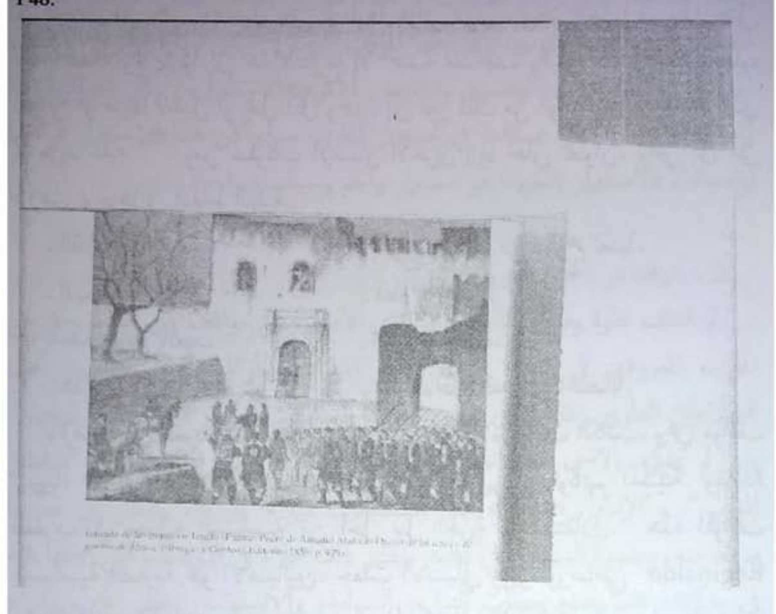
العلاقات الدولية بين العدوتين المغربية والإسبانية، يحكمها العداء التاريخي المتأصل في جذور التاريخ. ومن أبرز صور هذا العداء "الصراع الديني"، يقول الكاتب مخاطبا الإسبانيين بتطوان:" وأنتم في اعتقادكم ومرادكم لا يبقى مسلم على وجه الأرض، وهذا غير ممكن، فإن هذا الدين لا يزال قائما ولن تجدوا لتعطيله سبيلا، وخصوصا أنتم، لأنكم من الضعفاء "[53].

ولم يفت الكاتب وهو يدلي بدلوه في وصف الحرب، أن ينعت الإسبانيين بـ"الضعف"، و"الجبن"، والافتقار إلى الآلات الحربية، مما يبرهن على موقفه الصريح من هذه الحرب المفتعلة ومفتعليها. وهو موقف فكري سياسي معضد للمغرب، ومعارض ومنتقد للإسبان في أفعالهم اللاإنسانية واللاأخلاقية، المنافية للشرائع السماوية والقوانين الوضعية، في حق أهالي مدينة تطوان ومعالمهم الدينية والعمومية.

---

53 - محمد بن تاويت، م .س، ص 43.

صورة لدخول الجيش الإسباني إلى أحياء تطوان في أعقاب الحرب(1859م)، مصورة عن A. Redondo Penas, Voluntarios catalines en la guerra de Africa, Ceuta, 2010, P48.



2 ـ موقفه من الإسبان

أطال الكاتب في رواية تفاصيل ما أحدثه الجيش الإسباني بمدينة تطوان، وربما هذه التفاصيل لا يوجد لها نظير في باقي الكتابات التاريخية المغربية الأخرى، مما يبين أهمية المذكرة من الناحية المعلوماتية التاريخية من جهة، وأهمية مواقف الكاتب الوطنية والقومية الإسلامية من جهة أخرى. ومن مشاهداته في هذه الحرب عن أفعال الاسبانيين قوله:" وغصب أمتعة الناس من نهب وتطييح ديار وقطع أشجار إلى غير ذلك مما لا يخفى حتى قتل بعض من لا يستحق القتل ...ومنها أنهم يحتقرون الضعفاء ويعظمون الأغنياء، وأما عسكرهم لا تسمع منه إلا السب وفي الخلوة الضرب"[54]، وقوله

54 ـ محمد بن تاويت، م س، ص 33-34 .

أيضا: "وعند دخولهم للبلاد، صاروا يحملون المسلمين الزبل، والذي يأبى ذلك يضربوه، حتى يحمل ذلك غصبا، وبعد الصلح حملوهم الميتة وعاهدونا على أن لا يدخلوا مساجدنا، فلم يكفيهم الدخول حتى جعلوها خزائن مونتهم، وحتى أخذوا مسجدا يصلى فيه الجمعة، ولم يتركوا إلى هذا التاريخ إلا خمسة مساجد، والباقي كله أخذوه وجعلوه خزائن أو مربدا للخيل أو محل أكل وخمر، إلى غير ذلك من أنواع المناكر والفساد الذي لا مزيد عليه "[55]. ومن سلوكات الإسبان الأخرى إزاء أهالي تطوان، والتي أتى على ذكرها، نوجزها في النقاط التالية :

- القتل ظلما.
- إخراج الأهالي من ديارهم تعديا.
- النهب.
- قطع الأشجار .
- عدم الوفاء بالعهد.
- الشتم والسب.
- هدم الدكاكين.
- الارتماء على الفدادين اغتصابا.

بالإضافة إلى تصرفات وسلوكات أخرى، توضح بجلاء مواقف الكاتب. وهي مواقف بديهيا، أن تكون عدائية ومعارضة بشدة للمستعمرين وسلوكاتهم المشينة. ومؤيدة للمغرب في مطالبه السياسية من أجل نيل الحرية والاستقلال. هذه المواقف السياسية الصارمة نحو الاسبانيين، جعلت الاسباني رويز أورساطي Reginaldo Orsatti Ruiz مترجم النص المنثور من المذكرة إلى اللغة الاسبانية، يقدم له تعليقا عن الكاتب، ومن ذلك قوله: " وما يذكره صاحب التأليف من ذكرياته الشخصية وأفكاره الخاصة يدل دلالة أكثر من الكافية على أن صاحبه مسلم تطواني...وهو على جانب عظيم من التعصب "[56]. وقوله :" ومؤلف المخطوطة ملأها من أولها إلى آخرها بالتعصب المتطرف، كما أنها يتراءى فيها روح التشدد الذي كان عليه المغرب"[57]. فمن خلال هذا التعليق، يظهر أن المُعلّق عدّ الكاتب مسلما تطوانيا بالنظر إلى الأسلوب الذي كتب به المذكرة، بحيث يصعب التفريق فيه بين الجزائري الأصل والتطواني. لأن قضية الهوية ومصير أمة كانت توحد هذا الأسلوب. كما أن أورساطي عدّ الكاتب من

---

55 ـ محمد بن تاويت، م . س، ص34.

56 ـ محمد داوود، م . س،، ص296.

57 ـ نفسه، ص 297.

الكُتّاب المُتعصبين لمذهبهم الديني بل عدّه من المُتطرفين، وهو موقف فيه مغالاة وتعصب مذهبي أيضا. ولكننا لا نستغرب من مثل هذا الموقف، من إسباني متحيز لدولته ولمذهبه الديني. وما نستغرب له حقا، هو أن يتغاضى بعض الباحثين المغاربة المُحدثين عن هذا الأسلوب، وعن هذا الموقف الوطني الغيور لهذا الجزائري، ويصف الجزائريين بالمُتعاملين مع الفرنسيين والخادمين لمشاريعه الاستعمارية، وكأن الجزائريين ما وجدوا بالمغرب إلا لكي يساهموا في استعمار المغرب سواء كان هذا الاستعمار فرنسيا أوإسبانيا، فالاستعمار بالنتيجة هو استعمار واحد وسياسته واحدة.

3 - موقفه من المخزن المغربي

لم تختلف نظرة وموقف الكاتب الجزائري الأصل، عن مواقف باقي كتاب ومؤرخي المغرب المعروفين في القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين حول السلاطين العلويين. فقد أبدى تقديره الخاص للسلطان المغربي محمد بن عبد الرحمان، وإن لم يذكره بالاسم، وإنما نعته بـ" مولانا الإمام"، و"أمير المغرب"، و"سلطان المغرب"، و"الإمام". فاستعماله لهذه المصطلحات فيها ما يبررها، وتُفسر إلى حدّ ما موقفه منه، وصورة السلطان في ذهنه. ويظهر ذلك بجلاء في الأوصاف التي سجلها عنه في مذكرته، فقد وصفه بصفات النبل، والشهامة، والاستقامة، وفعل الخير، واتباع الحق، ومن ذلك قوله فيه: "وقد قل في الدنيا مثل أمير المغرب، في اتباع الحق، فإنه فاق غيره"[58]. ولتبيان عدالته الاجتماعية، وعدم تعديه على رعيته، مخاطبا بذلك الإسبان ومجادلا إياهم، يقول:" وأما سلطان المغرب فالدليل، على أنه لا يتعدا على مال الناس إلا بحق من الحقوق الشرعية، هو لا مال عنده "[59].

هذا الموقف السياسي للكاتب الجزائري، يعبر عن تشبثه بالمؤسسة السلطانية وشرعيتها، وبالتالي تشبثه وتعلقه بالسلطان الحاكم حينئذ مولاي محمد بن عبد الرحمان العلوي، مما لا يدع مجالا للشك في وطنيته وقوميته العربية الإسلامية وإخلاصه لها،

---

58 - محمد بن تاويت، م .س، ص 37.

59 - نفسه ص 34

وغيرته على النظام السياسي السائد في المغرب بحسب ما تراءى له، وغيرته - أيضا - على بلدته الثانية: تطوان. ولم يكن موقفه هذا خاصا به، وإنما شاركه فيه جزائريون آخرون في مدن مغربية أخرى، منها مدينة فاس.

المبحث الثالث: محمد المشرفي وكتابه الحلل البهية

ولد محمد المشرفي المعسكري[60]، في غريس بأحواز مدينة معسكر غرب الجزائر حوالي سنة 1255هـ/1839 م. وتوفي بفاس سنة 1334هـ/1916م. هاجر إلى فاس صحبة عائلته في حدود سنة 1260هـ/1844 م. وكان سنه يومئذ خمس سنوات، بمعنى أنه في حرب تطوان (1859-1860م)، كان شابا يافعا يبلغ من العمر نحو20 سنة، يتابع دراسته في جامع القرويين. ومن دون شك، أنه كانت تصل أصداء احتلال تطوان ومعاناة أهلها مع الإسبان إلى مسامع الفقهاء والطلبة هناك، ومن البديهي أن يكون محمد المشرفي أحدهم، خاصة وأنه كان نبيها فطنا وهو صغير السن كما يشير إلى ذلك شيخه وابن عمه العربي المشرفي بقوله :" حصل الملكة في العلوم...فاق أقرانه في فصاحة اللسان ... ولازال صغير السن، كبير القدر في الفن"[61]، ولما أتم المترجم دراسته العليا لم يكن منعزلا عن الحوادث السياسية التي كانت تستجد من حين لآخر على الساحة المغربية، وإنما عايشها بوجوده وقلمه، ودوّن بعض ما لفت انتباهه وأثر على نفسيته، سلبا أو إيجابا، ومن ذلك وقائع حرب تطوان.

ويعتبر كتابه الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية، من الكتابات التي أرخت للمغرب عامة وللدولة العلوية خاصة، من نشأتها إلى عهد السلطان مولاي عبد العزيز(1902 م)، ومن المعارف التاريخية التي ضمنها في كتابه، هجرة الجزائريين إلى

---

60 - انظر ترجمته مفصلة في المقدمة التي خصصناها لتحقيق كتاب *الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية*، للمؤلف محمد المشرفي، الرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، ط.1، 2005.

61 - أبو حامد العربي المشرفي، *ذخيرة الأواخر والأول*، مخطوط يوجد في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2659 ك، ص8.

62 - المشرفي محمد ، الحلل البهية،م . س، ج2، ص 92.

المغرب وسياسة الملوك العلويين تجاههم، خاصة في مدينة فاس. ومنها أيضا، حرب تطوان، تطوراتها وعواقبها. ولم يفته إبداء آرائه في كثير من قضاياها.

1 ـ موقفه من حرب تطوان

يبدو أن محمدا المشرفي، كان على اطلاع على حادثة حرب تطوان، وتطوراتها ونتائجها، بحكم معاصرته للحادثة أولا، ثم حبه للاطلاع عليها وعلى أوضاع المغرب ثانيا، من خلال ما جمعه من الروايات الشفوية من الرجال المسنين الذين شاركوا في الحرب أو شاهدوها من قريب أو بعيد، والوقوف على بعض الكتابات والوثائق الخاصة، مما جعل من كتابه مصدرا للكثير من المؤرخين الذين أتوا بعده خاصة حول حرب تطوان، مثل: عبد الرحمان بن زيدان، ومحمد داوود وغيرهما.

يرى محمد المشرفي، أن سبب الحرب يرجع إلى طلب الإسبانيين " قتل إثني عشر رجلا من المسلمين المجاورين لهم بسبتة قائلين أنهم بغوا عليهم"[62]. وحيث أن السلطان المغربي محمد بن عبد الرحمان لم يسايرهم في طلبهم، نشأ عنه نقض الصلح، ووقوع حرب تطوان، التي يسميها بـ"وقعة تطاوين". وفي أثناء اشتعال نار الحرب، ذكر المشرفي مجهودات السلطان، في إقامة الجهاد والاستعداد للحرب، من تجهيز الجنود وتجييش المتطوعة والإنفاق عليهم من كل ما يحتاجون إليه في هذه المناسبة، على يد خليفته أخيه مولاي العباس. وبهذه الاستعدادات، تمكن المسلمون من دحر الجيش الاسباني، وترجيح كفة النصر إلى جانبهم، يقول في هذا الصدد: "فكان الحرب، ونال المسلمون من الاصبنيوليين أجمل منال، وكان الحرب بينهم سجال والنصر للمسلمين في غالب الأحوال"[63]. إلا أن المغاربة لم يسايروا تطورات الحرب بنفس الوتيرة، فانقلبت الهزيمة عليهم. وكان السبب فيها هم المقاتلون المغاربة وبتعبير المشرفي "المسلمون" الذين تكاسلوا عن القتال وتقاعدوا "حتى أن نحو المائة من المسلمين واقفون أمام العدو يقاتلون ونحو الألف والألفين ينظرون لقتالهم من بعيد يتفرجون على صنعهم"[64]. بل

---

63 ـ المشرفي محمد ،م . س، ج2 ص 92.

64 ـ المشرفي، م . س، ج2 ص 92 .

والأدهى من ذلك فما " أقنعهم ذلك حتى جعلوا يتلصصون على من وجدوه من محلة المسلمين فريد، ويأخذون ما معه، وربما أصابوه بأسنة الرماح أو قتلوه بمقامع الحديد، ففشل المسلمون بذلك"[65]. واعتبر الكاتب، أن أهل الجبال المجاورة، كانوا أشد بلاء على أهل تطوان بسبب أفعالهم المشينة، وكانوا بذلك من الأسباب الأساسية في الهزيمة، ودخول الاسبان إلى مدينة تطوان واحتلالها.

وعلى العموم يمكن أن نوجز كلام المشرفي حول أسباب هزيمة المغاربة في هذه الحرب، في النقاط التالية:

- ركون المسلمين إلى العدو الاسباني وانتصاره له. وهو أقوى سبب.
- افتراق كلمة المسلمين.
- عدم وجود حاكم يزعجهم على التقدم.
- عدم وجود ضابط يجبرهم على الزحف حتى يظهروا شجاعتهم.
- عدم النصيحة في القتال.

وبذلك حمل مسؤولية الهزيمة إلى المسلمين المقاتلين، وبرأ ساحة السلطان من أي مسؤولية بقوله: "وحيث لم يساعد السلطان القدر، ولم يتم له ما أراد من قضاء الوطر جنح للسلم حيث جنحوا"[66]. وعلل الهزيمة بالإضافة إلى ما ذكر، تعليلا تاريخيا ودينيا سلفيا، فمن الناحية التاريخية يقول: "كما أن كثيرا من مدن الأندلس أخذت بمعونة بعض المسلمين، ومنها إشبيلية أخذها الطاغية بمعونة ابن الأحمر"[67]. أما التعليل الديني السلفي، وهو خروج المسلمين المتخاذلين المتنصرة عن السنة بفعلهم الذميم فيقول: "والخروج عن السنة أصل كل رذيلة"[68]. واستشهد في ذلك بالآيات القرآنية وأقوال أشهر فقهاء السنة.

عرض المشرفي أسباب الحرب، وبدايتها، وتطوراتها، ونتائجها بشكل موجز ومركز. والكلام عليها جاء في إطار مدحه للسلطان مولاي عبد الرحمان، وتبيان فضائله،

---

65 ـ المشرفي، م . س، ج 2 ص92

66 ـ نفسه، ج2، ص93.

67 ـ نفسه، ج2، ص 96.

68 ـ نفسه، ج2، ص 96

ومنجزاته، واستعداداته للحرب من كل ما تحتاج إليه من آلة الحرب، والعتاد، والمونة، والمال، بهذا يتوضح أن المشرفي المؤرخ، كان متشبثا بالسلطان والمؤسسة السلطانية في عهد السلطان مولاي الحسن، ومتشبثا بالمحافظة على وحدة السلطة وعدم خلخلة النظام القائم، بما فيه المصلحة العامة للبلاد والعباد. وكل هذا يعبر عن انتمائه الوطني المغربي الإسلامي، وحماسته وغيرته الدينية، في ظل اشتداد أزمة المغرب أمام الاستعمار الغربي المتفاقم. وهذا ما لم ينتبه إليه بعض الباحثين.

2 ـ موقفه من الإسبان

لم يتكلم المؤلف كثيرا عن الإسبانيين، وما أحدثوه بتطوان في أثناء حرب تطوان. وهو بذلك يختلف عن صاحب المذكرة الآنف الذكر، الذي فصل أفعالهم تفصيلا. ومع ذلك فهما يلتقيان في فهم الآخر، ويقدمان عنه صورة موحدة. فالمشرفي هو الآخر، يرى أن الإسبان أضعف الدول الأوربية، وأحقرها على الإطلاق. كما استعمل أوصافا ساقطة لنعت الإسبانيين وسلوكاتهم وقوتهم العسكرية، مثال ذلك : "ذمامة الإصبنيول"، و"الحقير"، و"المكر"، و"الخديعة" و"التحرش"، و" الكيد" ..الخ[69]. إلا أن المشرفي لم يخف شيئا مؤكدا، هو أنه رغم ضعف الدولة الإسبانية على المستوى الأوربي، فإنها كانت أقوى من الدولة المغربية. ومن ثم كانت نتيجة الحرب انكسار المسلمين أمام جيش هذه الدولة، بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ المغرب المعاصر، كان له أسوء العواقب في الحال والمآل. يقول في هذا الصدد : "وبهذه الوقعة انكسر المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثله، وزال حجاب الهيبة عن بلاد المسلمين لذمامة الاصبنيول، حينئذ، وحقارته لدى الدول العظام، إذ غلب الحقير أشد للحسرة، وآكد للفضيحة "[70]. ولذلك يرى المشرفي، بأن هزيمة المغاربة في حرب إيسلي مع الفرنسيين سنة 1260 هـ/1844 م كانت أهون من هذه الحرب المأساوية، باعتبار أن الفرنسيين، كانوا يومئذ، أعظم وأقوى الدول الأوربية، وأكثرهم تجربة في مكائد الحروب.

---

69 ـ المشرفي، الحلل البهية، م . س، ج2 ص95

70 ـ المشرفي، م . س، ج 2، ص95.

وبهذا يتبين لنا موقف المشرفي من الإسبانيين في حرب تطوان، التي اعتبرها من أكبر المآسي والمحن، التي مر منها المغرب في التاريخ المعاصر. وهو موقف ترجمه في عباراته وأوصافه التي نعت بها الاسبانيين، وفي عواقب الحرب التي كان من آثارها عقد الصلح. والقصد بذلك الاتفاقية المغربية الإسبانية المعقودة بينهما في نفس السنة (1276هـ/1860م)[71]، والتي كانت غير متكافئة من حيث الشروط المفروضة على المغرب. فكان من الطبيعي، والحالة هذه، أن يكون له موقف عدائي من الإسبان وأفعالهم. وهو موقف نقرأ فيه دفاع المشرفي على وحدة المغرب واستقلاله، باعتبارهما من أولويات الأمة .

والجدير بالذكر هنا، أننا أمام موقف إزاء الحرب وليس السلام، وإزاء الأفعال الذميمة، وليس الأفعال الحضارية. بمعنى آخر إن المشرفي عبر عن موقف معارض بشدة من الغرب الاستعماري وليس الغرب الحضاري.

3 ـ موقفه من المخزن المغربي

لم يتطرق المشرفي لحرب تطوان، إلا في معرض كلامه في مدح السلطان المغربي محمد بن عبد الرحمان، والثناء على تصرفاته وسياسته. ومن ذلك، رفض السلطان طلب إسبانيا القبض على إثني عشر رجل من أهل أنجرة المجاورين لسبتة، وتنفيذ حكم القتل فيهم، بدعوى أنهم بغوا في حدود سبتة، وبالمقابل، فضل السلطان الجهاد، والاستعداد الحربي في مواجهة الإسبان حيث " لم يأل جهدا في إقامة الجنود والجيوش المتطوعة المجتمعة للغزو، ففتح الخزائن وأنفقها عليهم، من كل ما يحتاجون إليه من خيل وآلة حرب من غير حصر"[72]، ظانا أن الرعية ستخلص في هذه الحرب المقدسة، وتقاوم بكل ما أوتيت من قوة . إلا أن ما جرى على أرض الواقع، كان يخالف مظنون السلطان وسياسته. لذلك أزاح المشرفي عن السلطان أي مسؤولية في هزيمة حرب تطوان، بقوله: " وحيث لم يساعد السلطان القدر، ولم يتم له ما أراد من قضاء الوطر،

---

71 ـ المشرفي، م . س، ج2 ص 93.
72 ـ نفسه، ج2، ص 92.

جنح للسلم حيث جنحوا"[73]. وذلك في أواخر شعبان سنة 1276هـ /أواخر مارس1860 م. ويرى المشرفي أنه بعد هذه الهزيمة، أصلح السلطان ما أفسدته الرعية، وذلك بسنه لسياسة الإصلاح العسكري والاجتهاد فيها ما أمكنه، ودفع الغرامة المقررة في شروط صلح حرب تطوان لاسترجاع المدينة المغتصبة.

بهذا يبدو المشرفي، وكأنه مؤرخ يميل إلى السلطان وسياسته. مؤرخ ذو توجه مخزني، متشبث بالسلطان والمؤسسة السلطانية، ومتشبث بالمحافظة على وحدة السلطة، وعدم خلخلة النظام القائم. بل دعا الناس إلى المحافظة عليه، ومساعدته، والنصح له في العمل، واتباع السنة الصحيحة، وكل ما فيه مصلحة البلاد والعباد. وكل هذا يعبر بدون شك، عن توجه المشرفي الوطني والقومي للمغرب الإسلامي، وغيرته الدينية.

خاتمة

باستعراضنا لأفكار الكاتبين الجزائريين الأصل، المستوطنين بالمغرب (الأول في تطوان والثاني في فاس)، والمعبر عنها بخطاب واضح اللغة والمضامين لا لبس فيها، وإن كان الأول أقل ثقافة وتمكنا من اللغة وأدوات الكتابة، فإنهما يجتمعان ويتوافقان حول ما يمكن أن نسميه بمفهوم الوعي الوطني والقومي وحرصهما على مقومات الأمة الإسلامية. وما دفاعهما، كلا حسب إمكانيته، على السلطة الحاكمة وعلى وحدة البلاد من أي تربص أو عدوان واحتلال، إلا صورة من الصور الدالة على هذا المفهوم. لقد خاطب الجزائري المجهول صاحب مذكرات حول حرب تطوان الناس بمختلف طبقاتهم، باللغة القريبة من العامية البسيطة والمعروفة عند الخاصة والعامة، أما محمد المشرفي صاحب كتاب الحلل البهية، فقد كتب باللغة العربية الفصحى الرصينة لتبليغ رسالته. ولعل الهدف من هذين الخطابين المختلفين من حيث أسلوب اللغة، والموحدين من حيث التوجه السياسي، إثارة الرأي العام الوطني والعربي الإسلامي وحتى الدولي،حول عدالة مطالب المغرب في تحقيق الأمن والحرية والاستقلال. إنه خطاب يجسد، من جهة

---

73 ـ المشرفي، م . س، ج2 ص93.

أخرى، الإرادة الجماعية للأمة العربية الإسلامية في الانعتاق والكرامة والحلم بمستقبل أفضل.

وكل ما أوردناه من هذه الأفكار، يدحض مزاعم كتاب الاستعمار ومن لف لفهم، في أطروحاتهم الاستعمارية، القائلة بوجود صراع وتجزئة في المغرب بين الجزائريين والمغاربة، وأن الجزائريين ساندوا الفرنسيين في مشروعهم الاستعماري بالمغرب. وإذا كانت هذه الأطروحة تصدق على البعض من الجزائريين فإنها لا تصدق على الأغلبية الساحقة منهم، مثلهم في ذلك مثل المغاربة أنفسهم. فالعملاء سواء للاستعمار الفرنسي أو الاسباني كانوا ومازالوا في كل مكان وزمان إلى أن انتصر الاتجاه الغالب. وإن النموذجين اللذين اتخذناهما محورا لهذا العرض، لا يشك في وطنيتهما وقوميتهما، ولا نعدم أمثلة أخرى كثيرة.

وما لاحظناه على النموذجين المذكورين، هو أن النموذج الأول القاطن بتطوان، لم يفصح عن اسمه في مذكرته، ويصعب تحديد أسباب ذلك. هل يُمكن الافتراض بأن الصفحة الأولى للمذكرة التي كُتب عليها الاسم قد بُترت أو تلاشت وضاعت، أم أن ذلك كان متعمدا من الكاتب لخوفه من الإسبان المحتلين لهذه المدينة، حيث أنه كتبها في ظل الاحتلال...؟! كما أن أسلوبه الركيك القريب من العامية، كان خافتا تجاه تطوان وأهلها، بالرغم من إعجابه بالمدينة ومدحها في أكثر من مناسبة، فضلا عن مدحه الباهت لسلطان المغرب حتى أنه لم يذكر اسمه، وإنما اقتصر على ذكر لقبه، فهل يرجع ذلك، أيضا، إلى الخوف؟ لقد فسر هزيمة المسلمين في حرب تطوان، تفسيرا داخليا. فقد حمل مسؤولية الهزيمة بالخصوص إلى أهل تطوان الفارين عنها، وإلى خليفة السلطان مولاي العباس الذي قبل الصلح، وإلى متولي تطوان أبعير، الذي أذن للإسبان بالدخول للمدينة. ولم يعرف أو لم يتعرف على الأسباب الخارجية الحاسمة، منها على الخصوص استعمال الإسبان للأسلحة النارية المتطورة، والمدافع الثقيلة، واتباعهم للخطة المدروسة والمحكمة بحسب ما توصل إليه العلم العسكري الغربي إلى ذلك الحين.

أما النموذج الثاني، الذي يمثله محمد المشرفي، فقد كان كاتبا بارعا، برع في مدح السلطان مولاي محمد بن عبد الرحمان، بأسلوب عربي فصيح يعرب عن كتابة رسمية

للتاريخ المغربي، ويجلي مكانته الاجتماعية والثقافية. وإذا كان المشرفي قد تميز عن كتاب عصره ببعض الميزات الكتابية والوثائقية، منها إثباته لوثيقة معاهدة صلح تطوان، فإن بعض ما يمكن ملاحظته عليه، هو اختصاره في عرض حوادث حرب تطوان، بخلاف الناصري الذي أتى بتفاصيل مفيدة. كما أن المشرفي لا يختلف عن الكاتب الجزائري المذكور، في تفسيره هزيمة المسلمين في حرب تطوان بالعامل الداخلي، متجاهلا بذلك العامل الخارجي الذي كان له الدور الفاصل، والذي أتينا على ذكره قبل قليل. فكلا الكاتبين لا يعذران في هذا الجهل أو التجاهل. باعتبار أنهما كانا على اطلاع على مجريات الأحداث، وعلى بينة من التفوق العسكري لأقل الدول الأوربية قوة وتحضرا، على المغرب. بينما كان الناصري على دراية تامة بهذا التفوق، وعرف الخلل الكامن في هذه الهزيمة وخصص لها حيزا في كتابه للكلام على حيثياتها وأسبابها الداخلية والخارجية، فضلا عن تخصيصه فقرة عن " القول في اتخاذ الجيش وترتيبه وبعض آدابه" كنتيجة لهذه الهزيمة. ومع ذلك فكلا الكاتبين الأنموذجين، تُعدّ أفكارهما المبثوثة في مؤلفيهما المذكورين من الأفكار المغربية الأصيلة التي يمكن اعتبارها من أصول أفكار الحركات الوطنية والقومية العربية الإسلامية في المغرب الكبير.

الفصل الثالث

العائلات الجزائرية بتطوان من خلال كتاب عمدة الراوين في تاريخ تطاوين لأحمد الرهوني*

مقدمة:

يندرج موضوع هذه الدراسة: "العائلات الجزائرية بتطوان من خلال مخطوط عمدة الراوين في تاريخ تطاوين لأحمد الرهوني (1288 ـ 1373هـ / 1871 ـ 1953م)"، في إطار التاريخ الاجتماعي لمدينة تطوان خاصة والمغرب عامة. نتوخى منه، المساهمة إلى جانب ثلة من الباحثين الذين اهتموا بهذا الحقل المعرفي التاريخي، بغية تبيان أهمية شريحة من شرائح مجتمع تطوان، عبر تاريخه الحديث والمعاصر، والتي لم تحظ بالعناية اللازمة من طرف الباحثين المحدثين باختلاف تخصصاتهم المعرفية، باستثناء تلك الفقرات القيمة التي لامست الموضوع، أثناء تناول أصحابها لتاريخ تطوان[74] وتاريخ المغرب العام . فمن دون شكّ، أن موضوع العائلات الجزائرية بتطوان يكتسي أهمية خاصة، إلى جانب العائلات الأندلسية، باعتبار أن هذه العائلات سرعان ما اكتسحت نسيج مجتمع تطوان، وأصبحت قوة اجتماعية وثقافية فاعلة، يحسب لها حساب، ولها مميزاتها في جميع المجالات الحيوية بالمدينة. وعلى هذا الأساس، اخترنا هذا الموضوع، ليكون محور هذه الدراسة الموجزة، التي سوف لن تُلمّ بمجموع قضاياه، بقدر ما تهدف إلى لفت الانتباه إليه، وتبيان أهميته، من خلال رصد أهمّ العائلات الجزائرية بتطوان، والتعريف بها استنادا

---

* ـ شاركت بهذا النص في ندوة موضوعها "الفقيه أحمد الرهوني وآثاره العلمية" التي نظمتها جمعية تطاون أسمير يومي 15 و16 مارس 1997 بقاعة المكتبة العامة والمخطوطات بتطوان. نشر النص في *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية* بتطوان، مطبعة الطوبريس بطنجة، العدد. 10، سنة 2000، ص. 295 ـ 309. (وللتذكير فإن كتاب *عمدة الراوين* للرهوني كان حينئذ ما زال مخطوطا. أما الآن فقد حُقق وطبع كاملا.)

74 ـ نذكر على سبيل المثال: عبد العزيز السعود، *تطوان خلال القرن 19*، مطبعة الحداد، يوسف إخوان (الهداية) ط. 1، تطوان 1996، منشورات جمعية تطاون أسمير، وإدريس خليفة، *الحركة العلمية والثقافية بتطوان من الحماية إلى الاستقلال*، مطبعة فضالة، المحمدية.

إلى كتاب "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين" لأحمد الرهوني، الذي ما زال استعماله واستغلاله من طرف البحث التاريخي الاجتماعي المعاصر في بدايته الأولى. لذا فإن اقتحام مثل هذا الموضوع، مبرر بما أمّلناه من فائدة جديدة، في التعريف بهذه الشريحة من جهة، واستغلال الكتابات التاريخية المحلية والتي لم تستغل بعد بشكل جدي من جهة أخرى.

فقد استقطبت مدينة تطوان منذ تأسيسها، أفواجا من الأندلسيين، الذين أرغموا على هجرة وطنهم ومتاعهم في فترات مختلفة من التاريخ الحديث، وبصفة خاصة بعد سقوط غرناطة سنة 898هـ / 1492م، وفي سنة 1018هـ / 1609م عقب مصادقة مجلس الدولة الإسباني، على قرار طرد جميع الموريسكيين من إسبانيا، ثم في سنة 1027هـ / 1617م على إثر النفي الجماعي.

إضافة إلى العنصر الأندلسي، نزحت إلى تطوان عناصر جزائرية، التي بدورها استقرت بتطوان، في فترات تاريخية مختلفة، ويلاحظ على العموم، أن استيطانها بها تضاعف في القرنين 18 و 19 الميلاديين. حيث كان للاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1246 هـ / 1830م، آثار وخيمة على الأوضاع المادية والمعنوية للجزائريين، لم يجدوا أثناءها سبيلا، سوى الهجرة بدينهم وشرفهم وكرامتهم إلى بلدهم الثاني: المغرب. حيث تفرقوا في عدة مدن، وبصفة متميزة في مدينتي تطوان وفاس، فأثروا وتأثروا بحضارتهما.

وقد كانت الجالية الجزائرية المقيمة بتطوان، محطّ اهتمام وعناية السلطات المغربية، كما يلاحظ ذلك من خلال الرسائل السلطانية الموجهة إلى عمال المدينة. فاستفاد منهم طلاب العلم، والتجار، والشرفاء، وغيرهم من الهبات المالية والعينية، بل جاءت أوامر سلطانية، تعفي المهاجرين الجزائريين من التكاليف المخزنية، ومن سائر الأعباء والخدمات. كما لقوا نفس الاهتمام والعناية من أهالي تطوان، الذين حزنوا لمصابهم وأشفقوا عليهم وقدموا لهم العون والمؤازرة . كما ساهمت العائلات الجزائرية، في تدعيم أواصر الود والتواصل بينها وبين هؤلاء الأهالي، ومنحت لمدينة تطوان دينامية حضارية ذات طابع خاص، بنقلها إليها عاداتها وتقاليدها في اللباس، والشراب، والطعام، والاقتصاد، هذا فضلا عن لهجتها ومصطلحاتها وتقنياتها الحضارية. وقد أشار أحمد

الرهوني، إلى بعضها في كتابه المخطوط، الذي نحن بصدده، كما استعرض مجموعة من العائلات التي حبذت الهجرة إلى تطوان والإقامة بها، والتي سوف نعرف بها بعد قليل.

المبحث الأول: المؤلف وكتابه عمدة الراوين

1 ـ المؤلف

ازداد الفقيه والمؤرخ أحمد الرهوني بتطوان سنة 1288هـ / 1871م. وبها نشأ ودرس على مجموعة من الشيوخ، على الطريقة التعليمية التقليدية السائدة آنذاك. ثم رحل إلى فاس لاستكمال دراسته، حيث أخذ العلم عن أعلامها وشيوخها الفقهاء والأدباء، أمثال: أحمد بن الخياط، ومحمد بن التهامي الوزاني، ومحمد بن جعفر الكتاني وغيرهم. وعاد إلى تطوان سنة 1315هـ / 1897م، فابتدأ مرحلة جديدة من حياته العلمية والعملية، إذ تقلد بها مناصب عديدة رفيعة المستوى كالتدريس، والعدالة، والكتابة بدار النيابة بطنجة لدى النائب السلطاني، بالإضافة إلى وظائف أخرى، وأهمها وزير العدلية للخليفة المولى المهدي سنة 1331هـ/ 1913م، وشيخ العلوم سنة 1934، ورئيس المجلس الأعلى للتعليم. وكان في طليعة العلماء الذين وقعوا على وثيقة تجديد البيعة للملك محمد الخامس المؤرخة بـ 5 شعبان 1372هـ / 29 أبريل 1953م.

توفي أحمد الرهوني في بستانه بحومة الطوابل بتطوان، مساء يوم الإثنين 13 ربيع الثاني سنة 1373هـ / 11 دجنبر 1953م، بعد أن قضى حياة حافلة بالأنشطة العلمية، وتقلد مناصب سامية. فماذا عن كتابه عمدة الراوين في تاريخ تطاوين؟

2 ـ الكتاب

صنف أحمد الرهوني كتابه عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، في عشرة أجزاء في الفترة الفاصلة بين سنة 1340 و 1350هـ / 1922 و 1932م.

وتوجد منه الآن أربعة نسخ مخطوطة:

ـ الأولى مكتوبة، بخط المؤلف الفقيه محمد داود، مصنفة في عشرة أجزاء، توجد بالمكتبة العامة والمخطوطات بتطوان ـ قسم المخطوطات، تحت رقم 684/676.

ـ الثانية: معظمها مكتوب بخط محمد داود، مصنفة في عشرة أجزاء وضعت في ثلاث مجلدات، توجد بالمكتبة العامة والمخطوطات تحت رقم 1082، وأخرى توجد بالخزانة الداودية.

ـ الثالثة: مكتوبة بخط الفقيه محمد بوخبزة، مصنفة في عشرة أجزاء، توجد بمكتبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، تحت رقم 960 ز ـ هـ ـ ع.

ـ والنسخة الرابعة، تقع في خمس مجلدات، توجد بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 12644.

وهنا نشير إلى أننا اعتمدنا في إنجاز هذا العرض، على النسخة الثانية (أي نسخة محمد داود)، بالإضافة إلى استئناسنا بالنسخة الثالثة (أي نسخة بوخبزة) [75].

وضع المؤلف كتابه في مقدمة ومقصد وخاتمة.

اشتملت المقدمة على فصول: الأول في فوائد التعريف بالعلماء والأولياء، والثاني في حكم الزيارة والثالث في بيان هل ينقطع عمل الولي بالموت؟ والرابع في كيفية الزيارة وآدابها وحكم الذبح على الضرائح وغيرها، والخامس في حكم الموسم.

أما المقصد فقد احتوى على الفصول التالية:

الأول: في تحقيق اسم تطوان، والثاني: في تاريخها، والثالث: في بيان موقعها الطبيعي، والرابع: في جوها وهوائها. والخامس: في بيان أوصافها، والسادس: في أقسامها وحوماتها، والسابع: في زراعتها، والثامن: في صناعتها وتجارتها، والتاسع: في عدد سكانها، والعاشر: في عدد دورها وحماماتها. والحادي عشر: في بيان عمالها وما طرأ عليها من تطور في الأحوال السياسية. والثاني عشر: في قضاتها. و الثالث عشر: في عادات أهلها، والرابع عشر: في أخلاق أهلها. والفصل الخامس عشر: في لغة أهل تطوان. والفصل السادس عشر: في التعريف بعلمائها وشيوخها وأوليائها وصلحائها.

---

75 ـ كان ذلك قبل تحقيق الكتاب.

وأما الخاتمة فقد عرف فيها بنفسه ونسبه وإجازات شيوخه، ثم ترجم للشرفاء البقاليين، وأبي العباس أحمد التيجاني، وفي الأخير أثبت تراجم شيوخه بفاس.

3 ـ السياق العام لتأليف الكتاب

ألف الرهوني كتابه عمدة الراوين في فترة تاريخية عصيبة (1922 ـ 1932م)، تميزت بتكالب الاستعمار الإسباني على شمال المغرب، والاستعمار الفرنسي على جنوبه، مما خلق حالة من عدم الاستقرار في كلا المنطقتين. وفي ظل هذا الوضع المتأزم اقتصاديا، واجتماعيا، وسياسيا، انبرى رجال وطنيون لهم غيرة على بلدهم، فقاموا بعمليات مقاومة جهادية مسلحة في جل أنحاء المنطقة الشمالية، وكان في طليعتهم المقاومون محمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الريف، والشريف أمزيان، ومولاي أحمد الريسوني، والشريف سيدي أحمد البقالي (البوهالي)، وبطل جبالة سيدي محمد بن الخراز، ومحمد ولد سيدي الحسن وغيرهم.

وتلت هذه المقاومة المسلحة، مقاومة ومعركة سياسية تمثلت في الحركة الوطنية، التي تجلت أهميتها في برنامج الإصلاح، وعملها الدؤوب من أجل الحرية والاستقلال.

لقد تأسست أول هيئة وطنية سرية بتطوان في شتنبر 1930. وفي سنة 1936 تكونت بها الأحزاب السياسية : حزب الإصلاح، الذي طالب بالإصلاحات في كل الميادين، وكذلك حزب الوحدة المغربية، الذي طالب في سنة 1937 بالحريات العامة والعدل والتعليم والإصلاح الزراعي. لكن هذه المطالب، ظلت تتضمن الإصلاحات لا غير إلى سنة 1942م، التي ستعرف تحولا جذريا وتبدأ الأحزاب بالمطالبة بالاستقلال ولا شيء غيره.

وعلى المستوى الثقافي، ظهر حاملو القلم والورق وتطلعوا إلى تحقيق الوحدة والاستقلال، وتشبثوا بالثقافة كوسيلة من وسائل الخطاب الوطني الهادف، ومن ألوان هذه الثقافة التي تميزت بها تطوان في هذه المرحلة، الحياة الأدبية التي ازدهرت ونشطت نشاطا ملحوظا خاصة في الفترة الواقعة بين 1926 و 1956. حيث ظهر الشعر والنثر كجنسين أدبيين يعالجان هذه الأوضاع، وبرزت الصحافة عبر وسائلها المكتوبة كالجرائد

والمجلات التي كان لها باع طويل في هذا الميدان، منها على الخصوص "مجلة السلام" (1933). ومجلة "المغرب الجديد" (1935) وغيرها.

كما تمّ تأسس في هذه المرحلة، المجمع العلمي المغربي سنة 1916، وأُنشات المدرسة الأهلية يوم 20 دجنبر 1924 ومطبعة المهدية عام 1928.

المبحث الثاني: العائلات الجزائرية بتطوان من خلال عمدة الراوين

ركز الرهوني في كتابه عمدة الراوين، على تراجم الشخصيات التطوانية سواء المعاصرة له أو السابقة، فكيف تم إدراج العائلات الجزائرية المستوطنة بالمدينة؟ وممن تألفت هذه العائلات؟

إن عدد العائلات التي رصدناها في الكتاب، هو سبعة وثلاثون عائلة، وهو عدد غير نهائي، يتوزّع على صفحات أجزاء الكتاب بالشكل التالي:

- الجزء الثالث: ثلاثون (30)عائلة.
- الجزء الرابع: عائلتان (2).
- الجزء السابع: عائلتان (2).
- الجزء السادس: عائلة واحدة (1).

وبناء على هذه اللائحة الإحصائية، يلاحظ أن معظم تراجم الجزائريين وردت في الجزء الثالث، الذي عده المؤلف من "المقدمات" وليس من "المقصد". مما يدل على أنها لم تكن مستهدفة في حد ذاتها، كما هو الحال بالنسبة لتراجم أعلام تطوان، وإنما جاءت عرضا أثناء تناوله لموضوعات وتراجم أخرى.

ما هي الفترة الزمنية التي تنتمي إليها العائلات الجزائرية بتطوان؟

إن الرهوني، لم يحدد تواريخ قدوم العائلات الجزائرية إلى تطوان. كما أنه لم يثبت للبعض منهم انتماءاتهم الجغرافية المحددة، باستثناء العائلات أو الأفراد الذين كانوا يحملون

ألقاب مدنهم الأصلية، كما هو الحال بالنسبة لـ"عائلة التلمساني"[76]، و"عائلة الجزائري"[77]، و"عائلة العنابي"[78]، و"عائلة المتيجي"[79]، و"عائلة المستغانمي"[80].

والبعض منها لم يزد الرهوني على ذكر اسمها، مع الإشارة إلى أنها عائلات جزائرية، مثال ذلك: "ابن عبد البر"[81]، و"ابن الطالب"[82]، و"ابن فاضل"[83]، و"أبو عمامة"[84]، و"أبو معزة"[85]، وغيرها.

ثم إنه حدد للبعض منها، تواريخ وجودها بتطوان دون زيادة على ذلك، على سبيل المثال: "عائلة ابن زاير"[86]، و"عائلة الثعالبي"[87]، و"عائلة الجزائري"[88]، و"عائلة العنابي"[89]، و"عائلة القسنطيني"[90] وغيرها.

أما التراجم التي بيّن تواريخ حياتها، فيمكن إدراج شخصية "محمد بن عبد العزيز"[91]، و"أحمد بن عمر"[92]، و" محمد بن عبد القادر بن مرزوق"[93]، و"العباس بن عبد الرحمان بن مرزوق"، و"عبد الكريم بن المهدي بنونة"، و" محمد بن أحمد الجزائري"[94] وغيرهم.

76- الرهوني، *عمدة الراوين*، م . س، ج 5، ص 97
77- نفسه، ج 6، ص 103 - 104.
78- نفسه ، ج 3، ص 132.
79- نفسه، ج 3، ص 1.
80- نفسه، ج 3، ص 7.
81- أحمد الرهوني، م س ، 3، ص. 10.
82- نفسه، ج 3، ص 7.
83- نفسه، ج 3، ص 7.
84- الرهوني ، م س، ج 3، ص. 13.
85- نفسه، ج 3، ص 5.
86- الرهوني، م . س، ج 3، 14، ص 91.
87- نفسه، ج 3، ص 41.
88- نفسه، ج 6، ص 103 - 104.
89- نفسه، ج 3، ص 132.
90- نفسه، ج 3، ص 149.
91- الرهوني ، م . س، ج 3، ص 7.
92- نفسه، ج 3، ص 8، 11.
93- نفسه، ج 4، ص 158.
94- نفسه، ج 6، ص 103 - 104.

كما ذكر الرهوني بعض العائلات التي انقرضت دون البحث في تواريخها وأعلامها، لجاءت خالية من التحديد الزمني والجغرافي، مثال ذلك: "عائلة ابن جعفر"[95]، و"ابن دباغ"[96]، و"ابن سفاج"[97]، و"ابن زاكور"[98]، و"ابن صيام"[99]، و"ابن طالب"[100] وغيرهم كثير، باستثناء عائلة واحدة أشار إلى أنها مازالت حية ترزق، وهي "عائلة ابن يونس"[101].

وعلى أي حال، فإن تراجم الرهوني الجزائرية تنتمي كلها إلى القرن 18 و 19 وأوائل القرن 20 الميلادي.

1 ـ العائلات المُترجم لها

نأتي الآن، على تبسيط تراجم الجزائريين حسبما أورده المؤلف الفقيه أحمد الرهوني، مع بعض التصرف، لتسهيل المعرفة بالأفراد الذين مثلوا هذه العائلات. وهي كالآتي:

ـ عائلة ابن زاعر[102]

لم يزد الرهوني على ذكر اسمها، وأنها كانت توجد بتطوان عام 1215هـ / 1800م ثم انقرضت. وهي تنتمي إلى مدينة تلمسان حسبما ذكره عبد السلام بن سودة في كتابه إزالة الالتباس عن قبائل فاس.

---

[95] ـ الرهوني، م . س، ج 3، ص 10.
[96] ـ نفسه، ج 3، ص10.
[97] ـ نفسه، ج 3، ص9.
[98] ـ نفسه، ج 3، ص 6.
[99] ـ نفسه، ج 3، ص 14.
[100] ـ نفسه، ج 3، ص 7.
[101] ـ نفسه، ج 3، ص 20.
[102] ـ نفسه، ج 3، ص 14، 91.

ـ عائلة ابن عبد العزيز[103]

يبدو أن هذه العائلة، كان لها صيت في مجال العلم والمعرفة. يذكر الرهوني أن من أعلامها المشهورين:"العلامة سيدي أحمد بن عبد العزيز"[104] الذي كان أول من قدم منهم إلى تطوان، ثم شيخه ـ أي شيخ الرهوني ـ محمد بن عبد العزيز.

ـ عائلة ابن شطاب[105]

من أفرادها الذين بقوا على قيد الحياة في عهد الرهوني، محمد بن شطاب.

ـ عائلة ابن عبد اللطيف[106]

عائلة شريفة النسب، منها السيد عبد القادر بن أحمد وأولاده، الذي يبدو أنه كان معاصرا للرهوني.

ـ عائلة ابن عمر[107]

عائلة شريفة النسب، منها السيد محمد بن عبد الغفور بن عمر، ورجح الرهوني أن يكون الولي سيدي أحمد بن عمر من هذه العائلة.

ـ عائلة ابن القاش[108]

عائلة معروفة في تطوان إلى الآن، وكان من أفرادها الذين ذكرهم الرهوني قدور الضرير بن القاش، الذي "كان له إلمام بالعلم وحفظ القرآن الكريم". وخلف ولدين، أحدهما هو الحاج محمد بن قدور والد الفقيه الحاج عبد السلام بن القاش، الذي كان فيما يبدو معاصرا للرهوني.

---

103 ـ الرهوني، م . س، ج 3، ص 7.

104 ـ إن الرهوني وقع في خطإ أو سهو في كتابة هذه التسمية ، والصحيح هو: عبد العزيز الجزائري كما تدل على ذلك المصادر المحلية ومذكرات هذه العائلة.

105 ـ أحمد الرهوني، م . س، ج 3، ص12.

106 ـ نفسه، ج 3 ص 8.

107 ـ نفسه، ج 3، ص 8، 11.

108 ـ الرهوني،م. س، ج 3، ص 10.

- عائلة ابن مرزوق[109]

ظهر من هذه العائلة بتطوان، محمد بن عبد القادر بن مرزوق الذي عده الرهوني من الأولياء الصالحين، أصله من تلمسان. عاش بتطوان ودرس بها على الشيخ علي بركة. ترجم له السكيرج، وقال بأنه "كان إماما في الفقه والنحو والبيان والتفسير. وغلب عليه التبتل والانقطاع للعبادة والخلوة"[110]، وذكر بأنه توفي في أواخر القرن 12هـ / 18م. ومن هذه العائلة أيضا، شيخ الرهوني، سيدي العباس بن عبد الرحمان بن مرزوق[111].

- عائلة ابن المفتي

بقي منها في عهد الرهوني الطالب مصطفى بن محمد بن المفتي.

- عائلة بنونة

عائلة مشهورة، ذائعة الصيت في تاريخ تطوان الحديث منه والمعاصر. كانت تقطن بفاس وتلمسان. ومن أفرادها الأعيان الذين وجدوا بتطوان وأصبحوا مع مرور الزمن ينتسبون إلى تطوان بحكم الأقدمية:

- السيد الحاج العربي بن المهدي بنونة، المتوفى في 15 رجب عام 1340هـ موافق14 مارس 1922. ترك ولدين هما:

- الحاج عبد السلام بنونة المعروف في الأوساط التطوانية، وهو يعد من أعيانها وأدبائها. كان يتكلم بعض اللغات الأجنبية، و متخصصا في الهندسة وله اطلاع واسع على التواريخ القديمة والحديثة.

- والثاني هو الأديب الشاعر محمد بنونة.

- ومن أخوة الحاج العربي بنونة:

محمد بن المهدي بنونة المتوفى عام 1336هـ / 1918، والأديب محمد بن المهدي بنونة المتوفي في نفس السنة المذكورة، ثم الحاج عبد الكريم بن المهدي بنونة الذي عده الرهوني من الأولياء الصالحين، وكان يحسن الآلات الوترية كلها. وتوفي في أوائل الربيع الأول عام 1331هـ / فبراير 1913.

---

[109] - الرهوني، م . س،ج 4، ص 158.

[110] - نفسه، ج 3، ص 158 - 159.

[111] - نفسه، ج 3، ص 6 - 7.

ـ عائلة التلمساني

من أفرادها محمد التلمساني الذي كان من شيوخ السكيرج، قرأ عليه مختصر الشيخ خليل بشرح الزرقاني. وتوفي سنة 1202هـ / 1787م

ـ عائلة الثعالبي[112]

استوطنت بتطوان منذ القديم، وأتى الرهوني ببعض تواريخ وجودها بها، وهي سنة 1040هـ / 1630م و 1145هـ / 1732م إلى عام 1152هـ / 1734م. وهذه العائلة شريفة النسب، ولعلها تنتمي إلى ذرية الولي عبد الرحمان الثعالبي المتوفى بالجزائر سنة 875هـ / 1470م. ذكر الرهوني أنها انقرضت في عصره.

ـ عائلة الجزائري[113]

من أعلامها محمد بن أحمد الجزائري، الذي أفرد له الرهوني ترجمة خاصة، حيث قال أنه كان محدثا، وواعظا، وخطيبا في عدة مساجد، منها مسجد جامع الفوقي والزاوية الريسونية. والرهوني نفسه حضر بعض دروسه في الأجرومية، حيث يقول عنه: "فكان له درس جميل وتأن وتؤدية وحسن تفهيم"[114]. توفي بعد سنة 1310هـ/ 1893م. ومن أولاده ربيع بن محمد الجزائري الذي كان ما يزال على قيد الحياة عندما ألف الرهوني كتابه عمدة الراوين.

ونفترض أن يكون من أفرادها أيضا، الفقيه الأديب عيسى الجزيري[115] الذي عاصر السلطان مولاي إسماعيل. ويبدو أنه كان من كتبة الباشا أحمد الريفي وخدامه المُخلصين. فبديهي أن يُعلن مؤازرته له، ويُعادي خصمه الحاج عمر بن عبد السلام لوقش في أثناء نزاعهما حول السلطة.

112 ـ الرهوني، م . س، ج 3، ص41.
113 ـ الرهوني، م . س، ج 6، ص 103 ـ 104.
114 ـ نفسه، ج 6، ص 104.
115 ـ نفسه، ج 6، ص 36.

- عائلة الرايس[116]

كانت توجد بمدينة تطوان سنة 1240هـ / 1824م، من شخصياتها المسمى أحمد الحجام الذي كان يشغل مهنة رايس البحر.

- عائلة الطراري[117]

من أفرادها أبو جمعة بن صالح الطراري، الذي عمل في جيش عبد القادر بن محي الدين الجزائري المتوفى بدمشق سنة 1300 هـ / 1882م. قدم إلى تطوان وهو في حالة جذب سنة 1276هـ / 1859م حسب تعبير الرهوني، الذي أضاف: "وكان لأهل تطوان فيه اعتقاد كبير ومحبة عظيمة"[118]، كما أنه كان "مزارا متبركا به معظما عند الخاصة والعامة"[119]. توفي بعد أن ألم به مرض، يوم 11 جمادى الأولى عام 1308هـ / 23 دجنبر 1890.

وذكر عبد السلام بن سودة، أن أولاد الطراري ينتمون إلى مدينة تلمسان[120].

- عائلة العنابي[121]

هذه العائلة كانت توجد بتطوان سنة 1214 / 1799 وسميت بالعنابي نسبة إلى مدينة عنابة بالجزائر.

- عائلة الغنمية[122]

اشتهر من هذه العائلة بصفة خاصة، الأديب العالم، أبو العباس أحمد بن عبد الكريم بن محمد بن أبي القاسم السليماني المعروف بـ "الغنمية". ولد سنة 1292هـ/ 1875م، دخل الكتاتيب القرآنية وحفظ القرآن منذ صغر سنه، ودرس على الشيخ محمد غيلان في جوامع ومدارس تطوان ، وعند استكماله الدراسة، عمل بتطوان، وآسفي، والدار البيضاء، وطنجة، والجديدة. وعين أخيرا رئيس كتابة وزارة المالية في المنطقة الخليفية، ثم

---

[116] - الرهوني، م . س، ج 3، ص 80.

[117] - الرهوني، م . س، ج 4، ص 202.

[118] - نفسه.

[119] - نفسه، ج 4، ص 202 .

[120] - ابن سودة، *إزالة الالتباس*، مخطوط يوجد بالخزانة الحسنية بالرباط، ج.2، ص. 3.

[121] - الرهوني، م . س، ج 3، ص 132.

[122] - نفسه، ج7، ص 13.

خاتمة:

هذا موجز عن العائلات الجزائرية بتطوان، من خلال كتاب عمدة الراوين في تاريخ تطاوين لمؤلفه الفقيه المؤرخ أحمد الرهوني.

ومن الملاحظات التي يمكن استخلاصها من هذه التراجم المتضمنة بالكتاب، هو أن الرهوني أورد في كثير من الأحيان أسماء العائلات الجزائرية الأصل، دون أن يكلف نفسه عناء البحث والتقصي في ترجمتها، حيث لم يزد على ذكر اسم العائلة وعلى أنها كانت موجودة بتطوان أو أنها انقرضت، بالإضافة إلى أنه ارتكب بعض الهفوات والأخطاء، كما ألمحنا إلى ذلك في محله من الموضوع. وربما يعود هذا الإهمال أو التقصير في المعلومات، إلى أن المؤلف لم يكن هدفه وغرضه هو الترجمة لها في حد ذاتها، بقدر ما كان غرضه هو شرح الكلمات التطوانية العامية كما هو الحال بالنسبة للجزء الثالث من الكتاب. أو أنه كان يترجم لأشخاص تطوانيين آخرين في ثنايا الأجزاء الأخرى، فأتت ترجمة الجزائريين عرضا دونما قصد.

وكثيرا ما كان الرهوني، يعتمد في ترجمته لهذه العائلة أو تلك على المخزون المعرفي الذي يستمده من قوة ذاكرته. لقد كان يستند إلى المُعاشرة والمُعاصرة، فضلا عن محفوظاته، دون الرجوع إلى النصوص والوثائق والمستندات من أجل التحري والتدقيق.

---

129 - الرهوني، م . س، ج. 3، ص. 10.
130 - نفسه، ج 3، ص 6.
131 - نفسه، ج 3، ص 14.
132 - نفسه، ج 3، ص 7.
133 - نفسه، ج 3، ص 10.
134 - نفسه، ج 3، ص 7.
135 - نفسه، ج 3، ص 20.
136 - نفسه، ج 3، ص 13.
137 - الرهوني، م . س، ج 3، ص 5.
138 - نفسه، ج 3، ص 14.
139 - نفسه، ج 3، ص 46.

فأورد بعض الأسماء خاطئة أوفيها تصحيف. ومع ذلك، فإليه يرجع الفضل في حفظ الكثير من الأعلام والعائلات، التي لولا ذكره إياها وإثباته لها لأصبحت في خبر كان.

الفصل الرابع

التشكيلة الاجتماعية للجزائريين في تطوان في القرن 13 هـ / 19م*

مقدمة

من الموضوعات التي مازالت إلى الآن مُغفلة ومهملة، أو أنها لم تنل الاهتمام من قبل الباحثين والمؤرخين المحليين المُحدثين، موضوع سكان مدينة تطوان من أصل جزائري وعثماني خاصة، ومن أصل مشرقي بصفة عامة. هذا الإغفال أو عدم الاهتمام، هو ما حدا بنا إلى إثارة الانتباه إلى شريحة اجتماعية، وتبيان أصولها، ونوعيتها، وطبقاتها، وأهمية وجودها داخل المجال الحضري لمدينة تطوان، محاولين بذلك مقاربة التاريخ الاجتماعي لهذه المدينة. واخترنا أنموذجا ممثلا لهذه الشريحة وهو التشكيلة الاجتماعية للجزائريين الذين هاجروا إلى المدينة وجعلوها سكنى لهم، حتى أصبحوا مع مرور الزمن إحدى المكونات الأساسية لبنية المجتمع التطواني ، وذلك من خلال دراسة وثيقة مخزنية فريدة، انفرد مؤرخ تطوان الفقيه محمد داود بنشرها في كتابه المعروف "تاريخ تطوان" المجلد الثامن، المنشور بالمطبعة الملكية ـ الرباط، عام 1979، صفحات 202 ـ 206.

* شاركت بهذا النص في ندوة موضوعها "الفقيه أحمد الرهوني وآثاره العلمية" التي نظمتها جمعية تطاون أسمير يومي 15 و16 مارس 1997 بقاعة المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان. نشر النص في *مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية* بتطوان، مطبعة الطوبريس بطنجة، العدد. 10، سنة 2000، ص. 295 ـ 309. (وللتذكير فإن كتاب *عمدة الراوين* للرهوني كان حينئذ ما زال مخطوطا أما الآن فقد طُبع كاملا حسب إفادة بعض الزملاء الأساتذة).

المبحث الأول: التآليف الاستعمارية والتعريف بالوثيقة المخزنية المعتمدة

قبل التعريف بالوثيقة المخزنية المُعتمدة ومضمونها التاريخي الاجتماعي، نرى أنه من المُفيد التذكير بنقطتين أساسيتين:

النقطة الأولى: إن الجزائريين بتطوان في أواسط القرن 13 هـ / الموافق للثلاثينات من القرن 19م، تألفوا في مجموعهم من المهاجرين الجزائريين الذين وفدوا على تطوان في مختلف الفترات التاريخية، لأسباب اختلفت حسب الظروف التاريخية الدولية والإقليمية والمحلية، وحسب تطلعات وآمال المهاجرين، هذا فضلا عن الروابط التاريخية، والجغرافية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية، واللغوية وغيرها، والتي جمعت بين البلدين: تطوان والجزائر. إلا أن الهجرة الكبرى للجزائريين، والتي ستؤثر في المجتمع التطواني في مختلف المجالات: الاقتصادية(التجارية والحرفية ...)، والاجتماعية (اللباس - الطبخ)، والثقافية (إدخال بعض المصطلحات العثمانية إلى اللغة العامية التطوانية)، هي الهجرة التي حدثت في القرن 19م، وبالضبط ابتداء من سنة 1246 هـ / 1830م، إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر، والذي كان له أسوء العواقب على الشعب الجزائري قاطبة، حيث خلت بعض المدن الجزائرية من سكانها أثناء دخول الفرنسيين إليها، كما تحدثنا بذلك المصادر الجزائرية. وكان أكثر المهاجرين إلى تطوان، ينتمون إلى مدن الغرب الجزائري (وهران، تلمسان، مستغانم، البليدة...)، وبصفة خاصة إلى مدينة الجزائر العاصمة، كما توضح ذلك الوثيقة المخزنية التي بين أيدينا.

النقطة الثانية: لقد ظل الجزائريون في المدن المغربية (فاس، وجدة، والقصر الكبير...)، على مستوى البحث والدراسة حكرا على الباحثين الفرنسيين، ونخص بالذكر منهم: منظرو السياسة الاستعمارية في المغرب على وجه التحديد وفي دول شمال إفريقيا عامة، والذين عملوا بكل ما في وسعهم، خاصة على مستوى البحث العلمي الميداني، في المجال الأنثربولوجي والأثنولوجي والاجتماعي، وحتى التاريخي، من أجل تسهيل مهمة التغلغل الفرنسي، تمهيدا لاحتلال المغرب احتلالا سلميا، أو بأقل الخسائر المادية والبشرية ما أمكن.

لذلك جاءت دراساتهم المحلية/المونوغرافية مفعمة بالأفكار ذات الميول الاستعمارية، تؤرخ لمرحلة نشاط التوجه السياسي الإمبريالي لدى الدول الغربية، التي كانت تملك إدارة قوية وجيشا مجهزا بأحدث الأجهزة، ومنطقا سياسيا جعل المؤرخين وعلماء الاجتماع يكونون عرضة للاستخدام بطريقة أو بأخرى[140]. ومن أمثلة هذا الاستخدام نسوق مثالا دالا أحسن دلالة، وهو إنشاء البعثة العلمية الفرنسية بطنجة من طرف لوشاطليي (Le Chatelier)، وبإيعاز من الحكومة الفرنسية سنة 1904. حدد ميشو بلير هدف هذه البعثة، فقال: "إن هدف هذه البعثة العلمية هو البحث في عين المكان عن الوثائق التي تسمح بدراسة المغرب، وبتحديد تنظيمه وحياته، ليس فقط بواسطة الكتب والمخطوطات ولكن أيضا بالمعلومات الشفوية، وبواسطة تقاليد القبائل والزوايا والعائلات"[141]. وإخلاصا لعمله.ولدولته، وتنفيذا لأقواله وأفكاره، أنجز ميشو بلير عدة أبحاث وتقارير، منها تقرير عن الجالية الجزائرية المسلمة في مدينة فاس[142]. وسار على نفس المنوال الضابط موجن[143] (Mougin) فحرر هو أيضا تقارير عن الجالية الجزائرية في وجدة. وكذلك الشأن بالنسبة لـ ألفريد لوشاطليي، الذي كتب تقريرا عن الجزائريين المسلمين في المغرب وسوريا[144]. وإدموند دوتي (E . Douté) الذي صنف تقريرا مفصلا عن الوسائل التي ينبغي على الساسة الاستعماريين تنفيذها من أجل تطوير الدعاية الفرنسية في المغرب[145]، وكان من هذه الوسائل استغلال الجالية الجزائرية بالمغرب واستثمارها بما يخدم مصالح الاستعمار الفرنسي.

كل هذه التقارير، وغيرها من الدراسات لمثل هؤلاء الباحثين المؤطرين للفكر الإمبريالي معرفيا ومنهجيا، كانت تهدف فيما تهدف إليه، معرفة المغرب، بمدنه وقراه،

---

[140] - عبد الكبير الخطيبي، *التاريخ وعلم الاجتماع بالمغرب*، *مجلة البحث العلمي*، عدد 11 و 12، ماي - دجنبر 1967، المركز الجامعي للبحث العلمي - جامعة محمد الخامس - الرباط . ص139.

141 - عبد الكبير الخطيبي، م . س، ص 140

[142] - Michaux - Bellaire, les Musulmans d' Algérie au Maroc *in Archives Marocaines*, Paris 1907, T. XI.

[143] - Mougin, les Algériens à Oujda, in *Renseignements coloniaux*, Septembre 1908, N° 9.

[144] - A. L. C. Les Musulmans Algériens au Maroc et en Syrie, *Revue du Monde musulman*, Paris, 1907. T. II.

[145] - E. Doutè, *Des moyens de développer l'influence Française au Maroc*, Paris, 1909.

ونخبته السياسية، وعائلاته، تسهيلا لعملية الاحتلال النهائي. فجاءت أبحاثهم مسمومة بالنظرة الاستعمارية، وحاملة بالرغم من جديتها وعلميتها، لعدة مغالطات وأخطاء في عدة نواحي، منها الناحية المفهومية، مثل مفهوم الهجرة كما مارسه ونظر إليه الجزائريون في المغرب. فأشاعت هذه الأبحاث والتقارير، أن المهاجرين الجزائريين استقبلوا في المغرب باللامبالاة وعدم الاهتمام، وأنهم عوملوا في المغرب كجالية أجنبية، بل عوملوا باحتقار وتهكم من المجتمع المغربي والسلطة الحاكمة سواء بسواء.

كما أن هذه الدراسات والتقارير أغفلت الجوانب الإيجابية في هذه الهجرة، مثل المساهمات الفعلية للجالية الجزائرية في المدن المغربية، في شتى المجالات. كما تبينها الوثائق المخزنية والمصادر المونوغرافية المغربية.

وما نأسف له، هو انسياق أحد الباحثين المغاربة المعاصرين في دراسته حول الجزائريين في المغرب من 1830 ـ 1962[146] نحو هذه الأطروحات الاستعمارية، بحيث نجده قد ركز على الجوانب السلبية للجزائريين في المغرب، ومن ذلك على سبيل المثال دورهم النشيط في تسهيل عملية الاحتلال السلمي الفرنسي للمغرب، نقرأ العناوين التالية المُتضمنة في دراسته فيتبين هذا الدور السلبي: "الفصل الثالث: الجزائريون بين الولاء للدولة المغربية والانسياق وراء الإغراءات الفرنسية بين 1870 و 1912". ومن عناوين هذا الفصل نقرأ: "الأدوار المنتظرة من الجزائريين: تحقيق التسرب السلمي الفرنسي"[147]. و"أدوار بعض الجزائريين لصالح التسرب السلمي الفرنسي"[148]. و"خدمات الجزائريين الموظفين في المصالح القنصلية الفرنسية"[149]. ونقرأ أيضا: "فرنسا والجزائريون وتوجيه المغرب نحو الحماية 1902 ـ 1912"[150]. إلى غير ذلك من العناوين الدالة على الأدوار السلبية للجالية الجزائرية في المغرب. ولم يكلف الباحث نفسه عناء

---

[146] ـ من إنجاز الباحث محمد أمطاط، وهي أطروحة لنيل الدكتوراة في التاريخ المعاصر. توجد مرقونة عنوانها: *الجزائريون في المغرب ما بين سنتي (1830 و 1962)*، في جامعة محمد الخامس، كلية الآداب ـ الرباط ، السنة الجامعية 2004 ـ 2005. (وقد طبعت ونشرت بالرباط سنة 2008)

[147] ـ محمد أمطاط، الجزائريون، م . س، ص 562.

[148] ـ محمد أمطاط، م . س، ص 563.

[149] ـ نفسه.

[150] ـ نفسه.

البحث عن الأدوار الإيجابية، والمساهمات المتعددة في مختلف المجالات العلمية والثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. وعلى سبيل المثال، فقد كان منهم في فاس علماء، وأدباء، ومؤرخون أكفاء، نكتفي هنا بذكر بعضهم: المؤرخ والأديب محمد المشرفي، وأبو حامد العربي المشرفي، ومحمد السليماني الأعرج، والفقيه والمؤرخ والمصلح محمد بن الحسن الحجوي.

وإن الوثيقة التي بين أيدينا، لدليل واضح على أهمية هذه الجالية بتطوان، وأصولها الاجتماعية المحترمة، وطاقاتها وإمكانياتها المهنية والحرفية، حيث ستساهم بشكل فعال وإيجابي في المجتمع التطواني خلال القرن 13 هـ / 19م، مما يجعلنا نقترب من مفهوم الهجرة كما عاشه المجتمع المغربي والمجتمع العربي الإسلامي في مختلف العصور، وليس كما فهمه وروّج له كتاب الاستعمار، أو من تبعهم من الباحثين العرب الذين اعتمدوا الوثائق الأجنبية وأغفلوا المغربية وخاصة المحلية. فجاءت أحكامهم مليئة بالإسقاطات. وهذا ما جعل جلّ المؤرخين الوطنيين، من أمثال جرمان عياش، وإبراهيم بوطالب، ومحمد عابد الجابري، وعبد الله العروي يحذّرون من هذا المنهج الذي يستند على الوثائق الأجنبية أو يغلبّها على الوثائق الوطنية. يقول العروي في هذا الصدد: "الواقع هو أن مضمون تلك الوثائق ـ يقصد الوثائق الأوربية ـ تابع لمنظور خارجي، فلا نستطيع تأويل ما جاء فيها من أوصاف، وبالتالي من أحكام، تأويلا مقبولا إلا بالنظر إلى ما نعرف عن المجتمع المغربي، اعتمادا على مصادر أخرى محلية في الأساس. وهو ما نزال نفتقر إليه في أهم القضايا"[151]. وهذه الدعوة إلى الاعتماد على الوثائق الوطنية مع عدم استثناء الوثائق الدولية، والتي تُعدّ من أسس المنهج التاريخي الموضوعي والسليم، هو ما نروم تحقيق جانبا منه في هذه الدراسة. فما لا يدرك كله لا يترك جله. ولنبدأ بالوثيقة المحلية أولا.

هذه الوثيقة المعتمدة في الدراسة، عبارة عن زمام أو بالأحرى لائحة كان قد أرسلها صحبة رسالة، قائد تطوان حينئذ محمد أشعاش إلى السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام، يخبره فيها بعدد الجزائريين المهاجرين إلى تطوان، مع ذكر أسمائهم وأصلهم وصفات كل واحد منهم.

---

[151] ـ عبد الله العروي، *مجمل تاريخ المغرب (3)* المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط. 1، سنة 1999، ص38

واللائحة غير مؤرخة، حيث أننا لم نعثر، لا على رسالة القائد أشعاش ولا على اللائحة في نسختيهما الأصلية. ومن حسن الحظ، أن الأستاذ الفقيه محمد داود كان قد عثر على اللائحة (الزمام) أثناء عمله في الخزانة الحسنية بالرباط فيما بين سنتي1969 و1974، ونشرها في كتابه تاريخ تطوان[152] بدون تاريخ.

وبناء على الرسالة الجوابية للسلطان المولى عبد الرحمان، التي نتوفر على نسختها الأصلية[153] والمؤرخة في 23 جمادى الأولى عام 1246 هـ / 9 نوفمبر 1830م، أمكننا الاستنتاج أن اللائحة كتبت فيما يبدو في أواسط شهر جمادى الأولى من نفس السنة.

ومن خلال قراءتنا للآئحة نلاحظ أنها:

1 ـ سردت أسماء المهاجرين الجزائريين إلى تطوان الـ 103. دون ذكر عددهم بالحرف أو الرقم.

2 ـ ذكرت صفات الأشخاص المهاجرين من حيث اختصاصهم المهني.

3 ـ أشارت إلى الانتماء العرقي والاجتماعي لأغلبية المهاجرين باستثناء أحد عشر مهاجرا.

4 ـ تخلو تماما من ذكر عنصر الإناث، مما يطرح تساؤلا عن أسباب غياب هذا العنصر.

5 ـ أوردت أسماء بعض الأولاد مع آبائهم. فهل هذا يعني أن بعض المهاجرين صحب معه أولاده من الذكور دون الإناث وأمهاتهم؟

6 ـ أوردت أغلبية الأسماء عارية من الاسم العائلي (النسب) أو اللقب. وهذا يعني أن اللائحة اقتصرت على إثبات الاسم الشخصي للمهاجرين دون النسب. مما يدل على أنها كتبت بشكل ارتجالي، وبدون تدقيق وضبط. مع العلم أنها كتبت على شكل تقرير رسمي حول أسماء المهاجرين وعددهم وانتماءاتهم واختصاصاتهم المهنية والحرفية. فهل هذا راجع إلى تخلف الإدارة المغربية في كتابة تقاريرها. حيث كان

---

[152] ـ محمد داود، *تاريخ تطوان*، م. س، مج 8 ، ص 202 ـ 206.

[153] ـ أصلها المخطوط يوجد في الخزانة الحسنية بالرباط 1/ 537 IX، وفي مدير مع الوثائق الملكية ونشرها محمد داود، *تاريخ تطوان*، مج 8، ص 202.

يعوزها أدوات التحرير العلمي الدقيق. التي تفنن فيها الضباط العسكريون الفرنسيون والبعثات العلمية ؟. ذلك هو واقع الإدارة المغربية.

خريطة تبين هجرة العائلات الجزائرية إلى تطوان عبر البحر خلال القرن 13 هـ / 19م

المبحث الثاني: التشكيلة الاجتماعية للجزائريين بتطوان

في البداية أشير إلى أن عدد المهاجرين المثبتة أسماءهم في اللائحة هو: (103) شخص، وأنهم ينتمون جغرافيا إلى مدينة الجزائر العاصمة، باعتبار أن هذه المدينة هي أول مدن المغرب الأوسط التي تعرضت للاحتلال الفرنسي.

1ـ الأصول العرقية للمهاجرين

من خلال قراءة لائحة المهاجرين الـ (103)، وإحصائنا عددهم حسب أصولهم العرقية، وضعنا تصنيفا تسلسليا ترتيبيا جاء على الشكل الآتي:

أ. الكرغليون: (44) شخص.

ب ـ العرب: (41) شخص

ج ـ الأتراك: (05) أشخاص

د ـ السودانيون: (02) شخصان

هـ ـ مجهولو الهوية العرقية: إحدى عشر شخصا (11).

يلاحظ من هذا التصنيف الترتيبي لعدد المهاجرين، أن العنصر الكرغلي تصدّر هذا الترتيب بأربعة وأربعين شخص مهاجر. مما يعني تفوقهم العددي، وكثرتهم، وقابليتهم للحركة الهجرية، بالمقارنة مع العناصر الأخرى ذوي الأصول العرقية المختلفة المصاحبة لهم في هذه الهجرة الاضطرارية، مع العلم أن الكرغليين ليسو عربا أقحاحا، وإنما هم مخضرمون: أتراك جزائريون. أصبحوا بفعل الزمن، وطول مدة إقامتهم وتزاوجهم واندماجهم في الجزائر، يحسبون من أهل الجزائر، وإن احتفظوا بلقب: "الكرغليون". ولما عانوا القتل، وسلب الأملاك، والتضييق الديني، إبان الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر، هاجروا إلى جانب العناصر العربية وغيرها، إلى مدينة تطوان المتوسطية، آملين في أن يجدوا فيها موطنا آمنا ومطمئنا، يؤمن لهم العيش الكريم في الحال والمآل.

أ. الكرغليون(44)

وهذه لائحة الكرغليين الجزائريين المهاجرين ومهنهم. نثبت أسماءهم كما وردت في الوثيقة مع تنظيمنا لها وترتيبها من أجل تسهيل المعرفة بهذه الشريحة من التشكيلة الاجتماعية الجزائرية، والتي أصبحت جزءا لا يتجزأ من مجتمع تطوان في القرن 13 هـ / 19م، وتنبئ ـ أيضا ـ بدورهم وتأثيرهم في الحياة الاجتماعية بتطوان بكل تفاصيلها. وهذا ما غاب بشكل منهجي في الدراسات والتقارير الاستعمارية والأبحاث التي نحت نحوهم:

1 ـ عبد القادر بن الرئيس

2 ـ علي بن أحمد

3 ـ مصطفى بن عبد الله

4 ـ مصطفى بن علي

5 - مصطفى بن محمد
6. مصطفى
7. حسن
8. مصطفى
9 - إبراهيم
10 - أحمد
11 - إبراهيم
12 - أيوب
13 - محمد بن أيوب
14 - عبد الرحمان بن عمر
15 - حسن بن أيوب
16 - يوسف بن مصطفى
17 - علي بن أحمد
18 محمد بن المصطفى
19. محمد بن إسماعيل
20 - الحاج محمد بن محمد
21 - علي بن محمد
22 - إبراهيم
23 - عبد القادر أشعاش
24 - الحاج علي بن المنتي
25 - محمد الترجمان
26 - إبراهيم
27 مصطفى بن شاوش
28 - عمر
29 - سيدي محمد

30 ـ حمود حسين

31 ـ يوسف

32 ـ أحمد بن عمر

33 ـ أحمد بن سليمان

34 ـ أحمد بن المصطفى

35ـ حمود بن الحاج محمد

36ـ محمود بن سليمان

37 ـ أحمد بن محمد

38 ـ مصطفى بن قدور

39 ـ قزلا

40 ـ محمد بن عصمان

41 ـ أحمد بن علي

42 ـ مصطفى بن علي

43 ـ عمر بن الحسن

44 ـ مصطفى

ب ـ العرب(41)

ويأتي في الرتبة الثانية من حيث احتسابنا لعدد الأسماء المصرح بها في اللائحة، المهاجرون الجزائريون ذووا الأصل العربي، وقد بلغ عددهم: واحد وأربعون شخصا (41). ونميل إلى الافتراض أن الثلاثة أفراد، الذين سنأتي على ذكرهم في خانة ذوي الأصل المجهول، هم عرب في الأصل. وهم من عائلة ابن الطالب المشهورة بتطوان. لم نقحمهم ضمن لائحة عرب الجزائر لأن الوثيقة لم تصنفهم ضمن أي عنصر من العناصر المذكورة:

1 ـ سيدي أحمد

2 ـ أحمد البلجي

3 ـ أحمد بن علي

4 ـ أحمد بن عمر

5 ـ أحمد بن محمد
6 ـ أحمد بن محمد
7 ـ أحمد بن محمد
8 ـ أحمد بن محمد
9 ـ أحمد بن المقفلج
10 ـ أخو عبد الرحمان الرشاي
11 ـ أخو محمد بن الفكاي
12 ـ محمد بن عبد الرحمان
13 ـ محمد بن عبد الرحمان
14 ـ محمد بن الفكاي
15 ـ الحاج محمد بن المصطفى
16 ـ الحاج محمد بن الهاشم
17 ـ محمد الدباغ
18 ـ المختار بن حمدان
19 ـ محمد محمود
20 ـ محمود خليل
21 ـ مصطفى
22 ـ سليمان
23 ـ عبد الرحمان الرشاي
24 ـ عبد القادر
25 ـ علي
26 ـ علي
27 ـ علي بن الحاج محمد
28 ـ علي بن الحاج عمر
29 ـ علي بن المساري

30 ـ الحاج عمر
31 ـ عمر بن الحاج محمد
32 ـ قدر بن منح
33 ـ قدر بن إبراهيم
34 ـ محمد بن الحاج قدور
35 ـ محمد بن الخروبي
36 ـ محمد بن محمد
37 ـ محمد بن سلوطي
38 ـ الحاج مصطفى
39 ـ الحاج مصطفى بن محمد
40 ـ مولود ابن قارة
41 ـ ولد الحاج محمد الدباغ

ج ـ الأتراك(05):

ورد في الرتبة الثالثة من حيث العدد، المهاجرون الجزائريون ذووا الأصول التركية، وعددهم: خمسة أشخاص(05):

1 ـ حسن تلو
2 ـ محمد بن عصمان
3 ـ محمد خوجة
4 ـ عصمان
5 ـ محمد تركي

د ـ السودانيون(02)

ومن العناصر العرقية المهاجرة من مدينة الجزائر إلى تطوان، المثبتة في اللائحة: العنصر السوداني وعددهم: إثنان (02). وهما:

1 ـ حمادي
2 ـ فرجي

هـ ـ مجهولو الأصل العرقي(11)

أما مجهولو الأصل العرقي، الذين ذكرت أسماؤهم ومهنهم فقد بلغ عددهم: ثمانية أشخاص (8)، بالإضافة إلى ثلاثة أشخاص (03) ذكرت صفاتهم المهنية ولم تعين أسماؤهم.

وقد سبق لنا أن افترضنا أن تكون الأسماء الثلاثة لعائلة ابن الطالب المشهورة إلى الآن بتطوان، تنتمي إلى العائلات العربية. وبذلك يكون عددهم الإجمالي: إحدى عشر شخصا (11):

1 ـ إبراهيم بن أحمد
2 ـ الحاج أحمد بن الطالب
3 ـ حمدان بن علي
4 ـ عبد الرحمان بن أحمد بن الطالب
5 ـ الحاج محمد
6 ـ محمد خوجة سي أحمد طرم
7 ـ مصطفى بن الخزنجي
8 ـ مصطفى الكرتلي

ومن مجهولي الأصل العرقي، الذين ذكرت صفاتهم ولم تذكر أسماؤهم: ثلاثة أشخاص. وهم حسب الوثيقة "ثلاث وصفان معتوقين الباشا" ذكروا ضمن القلاقطية بدون تحديد نوعية الحرفة.

2 ـ التصنيف المهني والاجتماعي

في البداية نشير إلى أن الوثيقة المخزنية المُعتمدة في هذه الدراسة، أوردت أسماء المهاجرين مرتبة ترتيبا مهنيا، أي أنها صنفتهم حسب أهمية المهنة وقيمتها الاجتماعية، بدءا برؤساء البحر، والطبجية والبحرية، ومرورا بالقلاقطية والأعيان، وأخيرا أصحاب الحرف وغيرها.

وهذا تصنيف وترتيب للتشكيلة الاجتماعية للجالية الجزائرية بتطوان، حسب صفاتهم الوظيفية المهنية والاجتماعية، التي تؤكد تنوعها وغناها، وبما ستساهم به في المجتمع التطواني في الحال والمستقبل، وهو الشيء الذي غاب عن الكتابات الكولونيالية ومن نحى نحوها:

أ- الحرفيون: 42.

ب - الطبجية: 20 .

ج - الأعيان: 17.

د - القلاقطية: 10.

هـ - البحرية: 05.

و - رؤساء البحر: 04.

ز - التجار / العطارون: 03.

ح - الإدارة / الشاوش: 02.

ومن الملاحظ في التصنيف المخزني الذي أوردته الوثيقة المخزنية، أنه أورد طبقة الأعيان في الرتبة ما قبل الأخيرة، أي قبل طبقة ذوي الحرف، وبعد البحرية و القلاقطية. وهو تصنيف غير معهود لهذه الطبقة عند المخزن المغربي، وفي الوثائق المخزنية بصفة عامة، حيث يأتي مصطلح الأعيان في الرتب الأولى بعد الخاصة.

أ - الحرفيون(42)

وهذه لائحة الحرفيين صنفناها حسب الترتيب العددي المهني للتشكيلة الجزائرية، وحسب الحروف الأبجدية. حيث تصدر هذا الترتيب أصحاب حرفة الحرارة والخرازة والقزازة، وغالبيتهم من أصل عربي:

1 - الحرارة (07)أشخاص

1 - سيدي أحمد (عربي).

2 - أحمد بن محمد (عربي).

3 - أحمد بن محمد (عربي).

4 ـ عمر بن الحاج محمد (عربي).
5 ـ عمر بن الحسن (كرغلي).
6 ـ علي بن الحاج عمر (عربي).
7 ـ الحاج مصطفى (عربي).

2 ـ الخياطة (07) أشخاص

1 ـ أحمد بن سليمان (كرغلي).
2 ـ حمدان بن علي (؟).
3 ـ حمود حسين (كرغلي).
4 ـ عبد القادر (عربي).
5 ـ قدر بن إبراهيم (عربي).
6 ـ سيدي محمد (كرغلي).
7 ـ محمد بن الخروبي (عربي).

3 ـ القزازة (05)

1 ـ إبراهيم (كرغلي).
2 ـ أحمد بن محمد (كرغلي).
3 ـ قدر بن منح (عربي).
4 ـ محمد بن عبد الرحمان (عربي).
5 ـ محمود بن سليمان (كرغلي).

4 ـ الخرازة (04)

1 ـ حمود بن الحاج محمد (كرغلي).
2 ـ علي بن المساري (عربي).
3 ـ محمد بن عبد الرحمان (عربي).
4 ـ حاج مصطفى بن محمد (عربي).

5 ـ الحجامة (03)

1 ـ أحمد بن عمر (كرغلي).

2 ـ أحمد بن محمد (عربي).

3 ـ المختار بن حمدان (عربي).

6 ـ النجارة (01)

1 ـ محمد بن الحاج قدور (عربي).

7 ـ الصباغة (01)

1 ـ أحمد بن علي (عربي).

8 ـ الحضاقة؟ (01)

1 ـ محمد بن عصمان (كرغلي).

9 ـ يفرا؟: (01)

1 ـ مصطفى بن علي (كرغلي).

ب ـ الطبجيون (20)

عددهم: عشرون طبجيا. تألفوا في غالبيتهم من مهاجري الكرغليين. وجاءوا من حيث العدد في المرتبة الثانية. مما يبين أهمية هذه التشكيلة ودورها في تشكيل الجيش المغربي في الثغر التطواني، خاصة بعد الأمر السلطاني للمولى عبد الرحمان بدمج هذه الفئة والفئات الأخرى في المهن المختصة فيها، حتى تتم الاستفادة من تجربتها وخبرتها في الميدان. ولدينا وثائق مخزنية توضح ذلك ترجع إلى سنة (1246 هـ / 1830م). وهو ما لم ينتبه إليه بعض الباحثين المعاصرين حول الجزائريين في المغرب.

وهذا ترتيبنا الأبجدي لأسماء الطبجية حسب انتمائهم العرقي وعددهم:

1 ـ الكرغليون (18)

1 ـ إبراهيم

2 ـ إبراهيم

3 ـ أحمد

4 ـ أيوب

5 ـ حسن

6 ـ حسن بن أيوب

7 ـ عبد الرحمان بن عمر

8 ـ علي بن أحمد

9 ـ علي بن أحمد

10 ـ محمد بن إسماعيل

11 ـ محمد بن أيوب

12 ـ محمد بن المصطفى

13 ـ مصطفى

14 ـ مصطفى

15 ـ مصطفى بن عبد الله

16 ـ مصطفى بن علي

17 ـ مصطفى بن محمد

18 ـ يوسف بن مصطفى

2 ـ العرب (02)

1 ـ سليمان

2 ـ أحمد بن محمد

والملاحظ أن أغلب أسماء الطبجية، وردت في الوثيقة بدون نسب. مما يدل على السرعة في كتابة الأسماء، وعدم الضبط والتدقيق، والتحري. وهذا كله من سمة تخلف الإدارة المخزنية المغربية في القرن 13 هـ / 19م.

ج ـ الأعيان (17)

ويتلو الحرفيين والطبجيين من حيث العدد، المهاجرون الأعيان. وعددهم: سبعة عشر (17) شخصا، وجلهم ـ حسب الوثيقة التي نحن بصددها ـ من العرب (08)، يتبعهم الكرغليون (03)، والأتراك (01).

وهجرة الأعيان من العلماء والأغنياء والملاكين والوجهاء، أكثرت المصادر والمراجع الجزائرية من الحديث عنها، خاصة أعيان مدينة الجزائر. يقول حمدان خوجة، وهو أحد الشواهد عليها في كتابه المرآة: "إن أكثر الملاكين قد غادروا الجزائر وهاجروا منها"[154]، ويقول في مكان آخر من نفس الكتاب: "إن جميع الأسر والعائلات الأثرياء الذين كانوا سندا لطبقة العمال والفقراء قد هاجروا وطنهم أو طردوا منه ونفوا ولم يبق منهم بمدينة الجزائر سوى العاجزين أو الذين لم تتوفر لهم إمكانيات الارتحال"[155].

ويقول شاهد آخر من مدينة الجزائر، وهو محمد ابن الشاهد الجزائري: "الحل الكثير من ذوي الأموال سافر من هذه البلدة [الجزائر] برا وبحرا شرقا وغربا"[156].

وتسير المراجع الجزائرية في نفس الاتجاه، فتدعم ما قالته المصادر في هذا الشأن، فتؤكد على أهمية هجرة الأعيان من مدينة الجزائر، فهذا مؤرخ الجزائر، عبد الرحمان الجيلالي يقول في هذا الصدد: "وفي هذه الآونة [يقصد سنة 1833 ـ 1834] غادر العاصمة نحو عشرة آلاف جزائري بما في ذلك ثلاثمائة أسرة من الأعيان كلها ذهبت مهاجرة إلى البلاد الإسلامية ومنها تونس والمغرب الأقصى"[157]. وفي نفس الإطار وبنفس اللهجة يتحدث أبو القاسم سعد الله ويقول: "وكانت الهجرة في البداية من مدينة الجزائر ثم تلتها المدن الأخرى. وكانت الهجرة تشمل عادة أعيان البلاد وأغنياءها وعلماءها"[158].

لذلك فمن الطبيعي أن تستقبل مدينة تطوان العدد المذكور في الوثيقة، بل وأزيد منه في مراحل لاحقة، كما استقبلت ـ من دون شك ـ أعدادا لابأس بها منهم في فترات تاريخية سابقة في إطار العلاقات الاجتماعية والتجارية بين المدينتين: تطوان والجزائر. إلا أن أكبر هجرة من هذه الطبقة الاجتماعية كانت في القرن 13 هـ / 19م. ومنها بطبيعة الحال في الفترة التي تتحدث عنها الوثيقة المخزنية.

---

[154] ـ حمدان خوجة، المرآة (مقتطف من وثيقة رقم 2 مؤرخة في 14 محرم 1249 هـ / 3 يوليوز 1833م). ص 294.

[155] ـ نفسه، ص 311. (وثيقة رقم 3 مؤرخة في 10 يوليوز 1833م).

[156] ـ أبو القاسم سعد الله، *تاريخ الجزائر الثقافي (ج6)*، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط.2، 1985.

[157] ـ عبد الرحمان الجيلالي، *تاريخ الجزائر العام*، ج 4، ص 13.

[158] ـ أبو القاسم سعد الله، *تاريخ الجزائر الثقافي* (ج 5)،الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط.2، 1985.

وهذه لائحة بأسمائهم حسب الترتيب الأبجدي والإثنوغرافي:

1 ـ العرب (08)

1 ـ أحمد بن عمر

2 ـ أحمد بن المقفلج

3 ـ محمد بن الفكاي

4 ـ أخو محمد بن الفكاي

5 ـ عبد الرحمان الرشاي

6 ـ أخو عبد الرحمان الرشاي

7 ـ الحاج حممد الدباغ(كذا)

8 ـ ولد الحاج حممد الدباغ(كذا)

2 ـ الكرغليون (03)

1 ـ عبد القادر أشعاش

2 ـ الحاج علي بن الممنتي

3 ـ محمد الترجمان

3 ـ الأتراك (01)

1 ـ محمد خوجة

4 ـ مجهولو الأصل العرقي (05)

1 ـ الحاج أحمد بن الطالب

2 ـ عبد الرحمان بن الحاج أحمد بن الطالب [159]

3 ـ الحاج محمد بن الطالب [160]

4 ـ محمد خوجة سي أحمد طرم

5 ـ مصطفى بن الخزنجي

[159] ـ وهو ولد الحاج احمد بن الطالب المذكور سابقا.

[160] ـ و هو حفيد الحاج أحمد بن الطالب المذكور.

يلاحظ من خلال هذا الترتيب، أن الأعيان العرب، تصدروا مهاجري هذه الشريحة الاجتماعية، ثم تلاهم مجهولو الأصل العرقي، والكرغليون. وقد سبق أن أشرنا إلى أن عائلة ابن الطالب والتي تألف أفرادها الأعيان في هذه الوثيقة من ثلاثة أشخاص، أن رجحنا انتماءها العربي. ومن المعلوم أن أفرادا من هذه العائلة كانت توجد بتطوان قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1246 هـ / 1830. ومنهم الحاج عبد الكريم بن الطالب، التاجر المشهور، كما تشير إلى ذلك الرسالة السلطانية المؤرخة في 19 رجب 1244 هـ / 1 فبراير 1829 [161]. ورد اسم هذه الشخصية في رسائل مخزنية أخرى تعود إلى سنة 1246 هـ / 1830م. مما يدل على أهميتها ومكانتها الاجتماعية في مدينة تطوان. فبالإضافة إلى عمله التجاري كان ابن الطالب وكيلا للجزائريين بنفس المدينة.

د ـ القلاقطية (10)

يبدو أن لفظة القلاقطية الواردة في الوثيقة المخزنية، عثمانية الأصل. وتعني، حسب تخميننا، المهن والحرف ذات الصلة بالمؤسسة العسكرية المخزنية، كما يلاحظ ذلك من خلال مهام واختصاصات المهاجرين الجزائريين المنضوين تحت تسمية القلاقطية، مثل الزنايدية، والقزدرة وصناعة الكراريط، والوصفان.

وهذه لائحة أسمائهم حسب ترتيبنا لها العددي والحرفي والأبجدي:

1 ـ زنايدية (02)

1 ـ إبراهيم

2 ـ علي بن محمد

2 ـ القزدرة (01)

1 ـ علي

3 ـ صناع الكراريط: 01

1 ـ محمود خليل

[161] ـ انظر محمد داود، *تاريخ تطوان*، م. س، مج 8، ص 174. وهي رسالة من السلطان عبد الرحمان بن هشام إلى قائد تطوان السيد محمد أشعاش.

4 ـ الطبخ "طباخ لاغ" (01)

1 ـ مصطفى الكرتلي

5 ـ "الوصفان" (03)

لم تعين الوثيقة المخزنية نوعية حرفة الثلاث "وصفان" أو عملهم داخل نطاق مهنة "القلاقطية" ولكنها ذكرت أنهم "وصفان الباشا". والقصد بذلك باشا مدينة الجزائر. كما أن الوثيقة لم تذكر أسماءهم.

6 ـ مجهولو نوعية المهنة (02)

لم تحدد الوثيقة المعنية نوعية مهنة المهاجرين الجزائريين المحسوبين على القلاقطية. بيد أنها ذكرت أسماءهما وأصلهما. وهما:

1 ـ محمد بن عصمان

2 ـ الحاج محمد بن محمد

هـ ـ البحرية (05)

ومن المهاجرين الجزائريين ذوي الاختصاص المهني البحري، خمسة (05) أشخاص: ثلاثة منهم من أصل عربي، وإثنان من أصل سوداني، والمثير أنه لا يوجد ضمنها الكورغليون والأتراك، الذين عرفوا بهذا الاختصاص.

ويلاحظ أن أسماءهم، وردت في الوثيقة عارية من النسب العائلي، شأنها في ذلك شأن المهاجرين من فئة الطبجية.

و هذه لائحة أسمائهم، مع ترتيبنا لها ترتيبا عرقيا وعدديا وأبجديا:

1 ـ العرب (03)

1 ـ علي بن الحاج محمد

2 ـ مصطفى

3 ـ مولود بن قارة

2 ـ السودانيون (02)

1 ـ حمادي

2 ـ فرجي

وما يلفت الانتباه في هذه الفئة هو تألفها من العنصر السوداني، الذي عرف بالعمل الحرفي والتجاري والمهن البسيطة.

و ـ رؤساء البحر (04)

توجد فئة رؤساء البحر ضمن المهاجرين ذوي المكانة الاجتماعية المحترمة، الذين هاجروا إلى تطوان أسوة بالفئات الاجتماعية الأخرى. فقد جذبتهم هذه المدينة بسبب موقعها الجغرافي المتوسطي وشهرتها بالتجارة والجهاد البحري، وصلاتها بالمدن المتوسطية والمدن الجزائرية بصفة خاصة. ففضل هؤلاء رؤساء البحر- أي رؤساء المراسي والمراكب البحرية المدنية والعسكرية ـ اللجوء إلى تطوان ذات الشهرة المتوسطية والتي كان يوجد بها جالية لا بأس بها من الجزائريين الذين استوطنوها في فترات تاريخية مختلفة.

وهذه أسماء رؤساء البحر التي أوردتها الوثيقة المخزنية المعتمدة :

1 ـ العرب (02)

1 ـ أحمد بلجي

2 ـ محمد بن سلوطي[162]

2 ـ الكرغليون (01)

1 ـ الرئيس عبد القادر بن الرئيس

3 ـ الترك (01)

1 ـ حسن تلو[163]

ز- التجار/ العطارة (03)

ينتميجميع ممتهني تجارة العطارة إلى العنصر العربي. وعددهم: ثلاثة (03) مهاجرين. وهذه أسماؤهم:

---

[162] ـ في وثيقة أخرى مؤرخة في 12 رجب 1246 هـ / 28 دجنبر 1830، أن إسمه هو: محمد البرسلوطي الجزائري. انظر محمد داود، *تاريخ تطوان*، مج 8، ص 212.

[163] ـ كان رئيس المرسى، وكبير السن.

1 ـ العرب (03)

1 ـ الحاج عمر

2 ـ محمد بن محمد

3 ـ الحاج محمد بن المصطفى

يلاحظ بخلاف أسماء رؤساء البحر، أن أسماء العطارة التجار وردت في الوثيقة عارية من إسم النسب العائلي. مما يؤكد تعليقنا السابق على هذه الوثيقة الذي قلنا فيه بأنها كتبت بارتجالية ودون مراعاة الضبط والدقة. وهي حالة جزء مهم من الوثائق المخزنية.

ح ـ الإداريون / الشاوش (02)

نجد ضمن الفئات الاجتماعية المهاجرة، فئة العاملين في مهنة الشاوش، والتي نعتقد أنها كانت تدخل ضمن الوظائف الإدارية. وعددها: إثنان (02) وهذه أسماؤهما:

1 ـ الكرغل 01:

1 ـ عمر

2 ـ الترك 01

1 ـ محمد تركي

ط ـ مجهولو المهنة (12)

ومن الجزائريين الذين وردوا في الزمام ضمن مجموعة "أصحاب الحرف وغيرهم"، لكن بدون تحديد نوعية حرفتهم، فقد بلغ عددهم (12). هل يعني أنهم بدون مهنة ولا حرفة؟ أم أن هذا الزمام كُتب على عجل وبدون تمحيص وتدقيق، فوردت أسماء هؤلاء بدون تبيان مهنتهم؟ لعل الافتراض الأخير هو الأقرب إلى الصواب. خاصة وأن الوثيقة/الزمام تُلمح إلى ذلك، لأنها أوردتهم تحت صيغة "أصحاب الحرف وغيرهم". ف"غيرهم" تحمل دلالة على أنهم من أصحاب المهن وليس بدونها.

وهذه أسماؤهم حسب ترتيبهم العددي العرقي:

1 ـ الكرغليون(7)

1 ـ أحمد بن علي

2 ـ أحمد بن المصطفى

3 ـ قزلا

4 ـ مصطفى

5 ـ مصطفى بن شاوش

6 ـ مصطفى بن قدور

7 ـ يوسف

2 ـ العرب(3)

1 ـ علي

2 ـ الحاج محمد بن هاشم

3 ـ محمد محمود

3 ـ الأتراك(1)

1 ـ عصمان

4 ـ مجهول الأصل العرقي(1)

1 ـ إبراهيم بن أحمد

خاتمة

هكذا نلاحظ من خلال هذا التصنيف للتشكيلة الاجتماعية للمهاجرين الجزائريين إلى تطوان ما يلي:

- التنوع العرقي،
- التنوع المهني،
- التنوع الاجتماعي،
- وحدة الانتماء الجغرافي إلى مدينة الجزائر،

- كثرة أصحاب الحرف،
- وجود طبقة الأعيان ضمن هذه التشكيلة بنسبة مهمة،
- كثرة طبقة الطبجية والبحرية.

وكل هذا يعني التكامل في التشكيلة الاجتماعية للجزائريين بتطوان في الثلاثينيات من القرن 19م. ويعني أيضا، نوعية مساهمة هذه التشكيلة في الحياة الاجتماعية في المدينة في نفس الفترة الزمنية وما بعدها، والتي ما زالت حاضرة في ثقافة أهلها وحضارتهم وسلوكاتهم إلى الآن. وكل هذا غاب عن الدراسات والأبحاث والتقارير الفرنسية ذات التوجه الاستعماري التي أنتجت خطابا تأويليا خاطئا عن مفهوم الهجرة الجزائرية إلى المدن المغربية. وبقيت تأويلاتهم هي السائدة، إلى الآن مما وجب علينا تقويمها ونقدها كلما كان ذلك ممكنا. وذلك بإنجاز الأبحاث والدراسات المونوغرافية والتحري والتنقيب عن الوثائق المحلية والوطنية والدولية، باستعمال المناهج الحديثة، من أجل تجلية الحقائق التاريخية، وإن كانت حقائق نسبية كما هو معهود في العلوم الإنسانية كافة.

الفصل الخامس

الأحياء الجزائرية بتطوان في القرن 13هـ/19م

(مساهمة أولية في رصد منازل الجزائريين بأحياء مدينة تطوان)*

مقدمة

تهدف هذه الدراسة، إلى المساهمة في رصد منازل، وكشف مساكن بعض العائلات الجزائرية المهاجرة، بأحياء مدينة تطوان العتيقة خلال القرن 13هـ/ 19م، والتي لها ارتباط وثيق بالديمغرافيا التاريخية والتطور العمراني والمعماري للمدينة. ولعلها تُجيب عن مجموعة من الأسئلة المرتبطة بوضعية الجزائريين في المغرب، والتي أُثيرت حولها نقاشات، وأُسيل مداد ليس بقليل، من قبل مُنظري الاستعمار الفرنسي بالمغرب والجزائر، في إطار مخططاتهم الطموحة، التي تهدف إلى استثمار هذه الفئة الاجتماعية في مشاريعهم الامبريالية.

وكما أن هذه الدراسة، تُميط اللثام عن مكانة الجزائريين الاجتماعية بمدينة تطوان، ووسائل وطرق سكناهم بها، فضلا عن علاقتهم بالسكان المحليين ومدى اندماجهم في محيطهم الثقافي.

---

* شاركت بهذا النص في الندوة الدولية *"تطوان والتطور العمراني والمعماري من القرن 16م إلى القرن 20م"* المنظمة بكلية الآداب بتطوان أيام 9 و10 و11 دجنبر 2005. ونُشر بكتاب *"المجتمع التطواني والتطور العمراني والمعماري"*، تنسيق د. امحمد بن عبود، منشورات كلية الآداب بتطوان، 2009، ص194-204، ونشر مرة ثانية ضمن الكتاب الجماعي *"المغرب والأندلس، نصوص دفينة ودراسات"*، العدد 2، تنسيق د. محمد الشريف، منشورات كلية الآداب بتطوان، 2008، ص139 - 152.

المبحث الأول: علاقة هجرات الجزائريين بالعمارة والتعمير في تطوان

مما لا شك فيه، أن المهاجرين الجزائريين إلى تطوان في القرن 13هـ/ 19م، بسبب عددهم وسرعة انتشارهم وطول مدة إقامتهم، حتى أن أغلبهم فضلوا الإقامة النهائية بها، عملوا على إثراء العمارة والتعمير بالمدينة في مجالات عديدة نذكر منها:

- زيادة تعمير "الحومات" في المدينة العتيقة، أو الإسهام في السكنى بأماكن هامشية.
- زيادة نسبة عدد السكان، وهو السبب المباشر والأساسي في تعمير المدينة، بل إنه أساس وجود المدينة.
- بناء عدد من المنازل الجديدة والمرافق الاجتماعية التابعة لها، وبالتالي توسيع المجال الحضري.
- تعمير الدور الشاغرة (دور الحبس، دور المخزن...).
- تنشيط الحركة الاقتصادية والصناعية: التجارة والحرف.
- الإسهام في الحركة الثقافية والتعليمية والحضارية بصفة عامة (الأدب، والفن، واللباس، والموسيقى،واللهجة...).

هذا على المستوى المدني، أما على المستوى العسكري فيتجلى أثرهم في عدة مجالات منها:

- زيادة نسبة عدد الجيش المغربي في الثغر التطواني.
- زيادة عدد الجيش في كل ثكنة عسكرية.
- بناء ثكنات عسكرية جديدة.
- تنشيط الحرف ذات الصلة بالصناعة العسكرية.
- إدخال نظام عسكري مستوحى من النظام العثماني المعمول به حينئذ في الجزائر.

فمن خلال الاطلاع على مجموعة من المصادر وخاصة الوثائق المخزنية السلطانية، والحوالات الحبسية، تمكنا من رصد بعض العائلات الجزائرية ومنازلها في المجال الحضري بتطوان. ومن المفيد، الإشارة هنا، إلى ملاحظة أساسية، وهي أن

المصادر بمختلف أنواعها شحيحة في مادتها المعلوماتية، لا تسعف الباحث على تكوين رؤية واضحة في الموضوع في الوهلة الأولى، فكثيرا ما أوردت هذه المصادر، أسماء الجزائريين أو ألقابهم دون تحديد أماكن استيطانهم في "الحومات" التي استقطبتهم. أو أنها على العكس من ذلك أثبتت اسم الحومة المسْتَقْطِبَةِ دون ذكر اسم الشخص أو العائلة الجزائرية المسْتَقْطَبَةِ. كما نصادف في هذه المصادر أسماء وألقاب العائلات دون تحديد أصولها، هل هي جزائرية الأصل أم أندلسية أم مغربية، مما يجعل باب الاجتهاد مفتوحا أمام الباحث، للترجيح في كل الأحوال. هذا الشح في المعلومات المعرفية التاريخية والجغرافية، يجعل من عملية الرصد والكشف عملية شاقة وعسيرة الإنجاز، قد تثير استفهامات. وهو الأمر الذي حال دون توصل هذه الدراسة، إلى تحديد العديد من أسماء الأزقة، والدروب، والحومات التطوانية، التي استوعبت المهاجرين الجزائريين أو التي جعلتهم يستوعبونها.

ومع ذلك ستحاول الدراسة، أن تُبيّن جزءا من العملية الكشفية، من خلال استنطاق نماذج من الوثائق المخزنية وبصفة خاصة الرسائل السلطانية، والحوالات الحبسية، التي تكتسي أهمية لا جدال فيها، في مثل هذا الموضوع خاصة، والتأريخ الاجتماعي لمدينة تطوان عامة.

المبحث الثاني: نماذج من الأحياء الجزائرية بتطوان

نقصد "بالأحياء الجزائرية" الأماكن الجغرافية أو الفضاء الحضري التطواني ـ الذي أطلق عليه أهل تطوان مصطلح "الحومات" جمع حومة، وهو المصطلح الشائع إلى حد الآن – والذي استقطب بشكل أو بآخر الموجات البشرية الجزائرية المهاجرة إلى تطوان في القرن 13هـ/ 19م، حيث جعلته موطنا ومستقرا لها، مارست فيه حياتها العامة. وما تزال إلى حد الآن، وحتى الآن، بعض الدور والأزقة والدروب، تحمل أسماء وألقاب العائلات ذات الأصول الجزائرية.

1 ـ حومة أحفير

من الوثائق الحبسية التي تسلط بعض الضوء على طبيعة علاقة أهالي تطوان بالمهاجرين الجزائريين المستوطنين حاضرتهم، الحوالة الحبسية[164] المحتوية على ثلاث نصوص رسوم، يهمنا منها في موضوعنا، الرسم الأول المؤرخ في 8 ذي القعدة 1246هـ/ 20 أبريل 1830م. وخلاصة مضمونه، أن الشريف سيدي عبد السلام بن علي بن ريسون الحسني العلمي، حبَّس جميع داره " التي له في حومة أحفير من ثغر تطوان المعروفة في القديم للحاج أحمد الشاط المحدودة قبلة بروا الحبس وشرقا بدار أولاد بوسلهام وجوفا بحمام ورثة السيد الحاج علي مدينة وغربا بالطريق، على جميع الضعفاء والمساكين من أهل مدينة الجزائر، الذين خرجوا منها فارين بأنفسهم ودينهم وأعراضهم، واحتلوا بثغر تطوان، بنيَّة السكنى والاستيطان (...) ليسكنها المحتاج لسكناها منهم أو يأخذ فائدة غلتها، ويتصدق بها عليهم، ولا فضل في ذلك لذكر على أنثى حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين....".

عيَّنَتْ هذه الوثيقة، إذن، حومة أحفير كفضاء سكني استقطابي، حيث توجد دار في ملك الشريف عبد السلام بن ريسون، الذي قرر تحبيسها، على جميع الضعفاء والمساكين من أهل مدينة الجزائر، دون تحديد عدد وأسماء هؤلاء الجزائريين المستفيدين.

والمحبس أراد – فيما يبدو – عدم حصر لائحة الأسماء، ليترك المجال مفتوحا لكل الواردين الذين تتوفر فيهم شروط التحبيس. كما أن المحبس، ترك الاختيار للمستفيدين الجزائريين، بين السكنى في الدار المذكورة، أو أخذ فائدة غِلَّتِها أي الاستفادة من كرائها نقدا.

وما يهمنا، هنا، هو الاختيار الأول، حيث نفترض أن بعض العائلات، لا نعلم عددها، عمرت الدار المذكورة، وجعلتها مستقرا لها – وهي في أمس حاجة إليها بسبب

---

164 أتحفني بنسخة منها مشكورا د. خالد الرامي (يوجد أصلها في نظارة الأحباس بتطوان).

الهجرة والغربة والفقر – في حومة أحفير التي نصت عليها الحوالة الحبسية. والفرق الزمني بين تاريخ الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر (14 محرم 1246هـ / 5 يوليوز 1830م) وتاريخ التحبيس والسكنى بهذه الدار (8 ذو القعدة 1246هـ / 20 أبريل 1830م) هو نحو 9 أشهر فقط. ويدخل في هذا الفرق الزمني، المدة التي استغرقتها رحلتهم من مدينة الجزائر إلى تطوان. مما يعني أن هذه الحومة كانت ضمن المحطات الأولى في تطوان، التي استقبلت المهاجرين واحتضنتهم وتكفلت بهم سكنيا وماديا، بفضل النخبة الشريفة الريسونية التازروتية الأصل التطوانية القرار، ذات الصيت على المستوى المحلي التطواني خاصة والمغربي عامة.

ويبدو أن هذه الدار المعنية، من الدور الكبرى المعروفة والمشهورة لدى ساكنة تطوان، والتي كانت فيما قبل في ملك عائلة أحمد الشاط، ثم انتقلت إلى ملكية عبد السلام بن ريسون عن طريق الشراء، فاقتضى نظره بعد معاينة وضعية إخوانه في الدين، أهل بلد الجزائر، وما لاقوه من الاحتلال والإبادة والتفقير والهجرة أن يحبسها عليهم، تضامنا معهم في محنتهم، ومواساة لهم، وإشفاقا عليهم، مراعيا في ذلك ظروف هجرتهم القاسية وأزماتهم النفسية. يريد بعمله الخيري هذا، الأجر والثواب.

فكانت حومة أحفير، بهذا العمل الخيري الإكرامي، رمزا للتضامن والتكافل الاجتماعي السكني والعيني في الثلاثينات من القرن 19م. كما كانت رمز الوحدة والأخوة والتكتل ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر.

وتقع أحفير، في الناحية الشرقية من أقدم وأهم تجمع سكاني في مدينة تطوان العتيقة، والذي يصطلح عليه ب "حومة البلد"، النواة الأصلية للمدينة. يحدها شرقا حومة جامع الكبير، وغربا الغرسة الكبيرة، وحومتي الوسعة والصياغين شمالا. وذكر الأستاذ محمد بن عزوز حكيم، أن حومة أحفير كان يسكنها الميسورون من سكان تطوان.

وكل هذا، يبين أهمية وحيوية موقع الحومة ومدى إمكانية استفادة أهلها منه. وكان المهاجرون الجزائريون، الذين أصبحوا جزءا من التشكيلة الاجتماعية في مدينة تطوان، ممن استفاد أيما استفادة من هذه الحومة.

2 ـ حومة جامع الكبير

من خلال إحدى الرسائل المخزنية، تعرفنا على حومة الجامع الكبير، كإحدى الحومات التطوانية التي استوعبت مهاجرين جزائريين، منهم السيد أحمد بن الشطاب الجزائري، الذي قادته الأقدار إلى السكنى بأحد الدور الكبرى والمشهورة، وهي دار بجة. فهذه رسالة من السلطان عبد الرحمان بن هشام، إلى قائد تطوان السيد محمد بن عبد الرحمان أشعاش (مؤرخة في 2 ذي القعدة 1255هـ /6يناير1840م)، يأمره فيها بإسقاط الكراء عن السيد أحمد بن الشطاب الجزائري والإنعام "عليه بالسكنى فيها من غير شيء يلزمه جبرا لحاله وإظهاراَ لأثر إيوائه إلينا وانحياشه لجانبنا"[165].

ويقول مؤرخ تطوان الفقيه محمد داود، بأن دار بجة المذكورة من الدور الكبرى في تطوان، ورثها بيت المال عن المثري الشهير السيد احمد بجة الذي كان من كبار التجار المغاربة بجبل طارق[166] في بداية القرن 13هـ / أوائل القرن 19م.

وعن موقع دار بجة يقول الفقيه داود: "والدار المذكورة معروفة في حومة الجامع الكبير، أمام زاوية سيدي بن مرزوق، وما زالت إلى الآن تحت تصرف أولاد بن شطاب، وكانت مضرب المثل في كبرها واتساعها بالنسبة لغيرها من دور تطوان"[167].

من خلال هذه المعلومات، يلاحظ أن السيد أحمد بن شطاب الجزائري الأصل، هاجر إلى تطوان بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، واستوطنها واستقر في أهم وأكبر دورها، ويبدو أنه كان يؤدي كراءها من ماله الخاص، إلى أن جاء الأمر السلطاني، بإسقاط الكراء عنه، وتثبيته على السكنى فيها[168] من غير شيء يؤديه، إشفاقا على حاله، ومراعاة لوضعيته كمهاجر إلى إخوانه في الدين، أهل مدينة تطوان.

---

[165] - انظر: محمد داود، *تاريخ تطوان*، المجلد 8، المطبعة الملكية، الرباط، 1398 هـ/ 1978م، ص 328.

[166] - نفسه.

[167] - نفسه، ص 329.

[168] - أي في دار بجة المشهورة.

وأهمية موقع حومة الجامع الكبير لا تخفى في النسيج الحضري لمدينة تطوان، فهي جزء من حومة البلد القلب النابض للمدينة، وقريبة من الأسواق التجارية والحرفية، وموطن أعيان تطوان ووجهائها وتجارها، بمختلف طبقاتهم وحتى رجال المخزن.

وأهميتها من الناحية الثقافية والسياسية لا جدال فيها، ففيها يوجد الجامع الأعظم ، الذي منه استمدت اسمها وشهرتها، لأنه كان معقلا للعلم والمعرفة وخاصة المعرفة الدينية، ومكانا للتداول في الأمور السياسية المحلية والوطنية، فضلا عن كونها سكنى رجال العلم والثقافة بها. ولا شك أن استيطان الجزائريين بها يحمل أكثر من معنى ودلالة، خاصة ما تعلق بمدى استفادتهم منها ومدى اندماجهم فيها وعلاقتهم بسكانها.

3 ـ حومة الوسعة وحومة سوق الغزل

نستشف من البحث الميداني الذي أنجزه جولي (Alexandre Joly) حول الصناعة الحرفية بتطوان، ونشره سنة 1909م في مجلة المستندات المغربية، لسان حال البعثة العلمية الفرنسية الاستعمارية في المغرب، أن حومتي الوسعة وسوق الغزل كانتا معقلا سكنيا وتجاريا وحرفيا في نفس الآن[169] لمجموعة من المهاجرين الجزائريين الذين فضلوا الإقامة بهما عن غيرهما من الأحياء، كما هو الشأن بالنسبة لعائلة ابن صيام (Ben Siam) وعائلة ابن زكري[170]، ثم عائلة حسن الجزيري. وهذه العائلات، اشتهرت في تطوان في أواسط القرن 19م، بتعاطيها للصناعة الحرفية، مثل صناعة الحرير (كالأحزمة الحريرية) وصناعة المناديل، ويذهب جولي(Joly (A[171] المذكور آنفا إلى أنه، إليهم يعود الفضل في إدخال هذه الحرف ذات الأصل الجزائري إلى هذه المدينة.

169- Joly (A), *l'industrie à Tétouan*, in *Archives Marocaines*, Tome XV, Paris, 1909. P.84 – 117.

170- كتب جولي هذا الاسم بهذا الرسم: ابن زاكير Ben Zakir ولعله كان يقصد عائلة ابن زكري Ben Zkri، التي أثبتناها في المتن.

171 - Joly, ibid., P : 117.

وليس لدينا معلومات دقيقة تحدد تاريخ استقرارهم، لكن يبدو أنهم قدموا إلى المدينة، بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1246هـ / 1830م كما يفهم من كلام جولي (Joly) نفسه[172].

ونظرا لكثرة الجزائريين الموجودين في حومة الوسعة التجارية، أطلق الرحالة الفرنسي شارل ديدي(Charles Didier) في كتابه "جولة في المغرب" عند زيارته لتطوان سنة 1844، على هذه الحومة مجازا اسم "حي الجزائريين"[173].

4 ـ حومة الطرانكات:

أثبت المؤرخ الفقيه محمد داود، في كتابه "تاريخ تطوان" لائحة بأسماء بعض العائلات القاطنة بحومة الطرانكات مؤرخة في سنة 1257هـ[174]/ 1841م. وكان الغرض من وضعها، هو إحصاء عدد الديار مع عدد سكانها الضعفاء المحتاجين، للإنعام عليهم بالهبات السلطانية حسب ما تقتضيه المناسبة.

كتب اللائحة العدل المصاحب لمقدم حومة الطرانكات مع أمينين. وكلهم من تعيين قائد تطوان السيد محمد بن عبد الرحمان أشعاش، الذي عرف عنه بحسن "التدبير وإحكام التنظيم"[175]. ومن خلالها، تمكنا من معرفة أسماء العائلات القاطنة في الحومة المذكورة وعدد أفرادها في كل دار من دورها، ومنها العائلات ذات الأصل الجزائري، نذكر منها كما وردت في نص الكتاب[176]:

الدار والإسم واللقب	عدد أفرادها	
دار الجيار	03	
دار الجزيري	03	

172- Joly, ibid. P : 84 : « ... vinrent, après la prise de leur ville en 1830, s'établir à Tétouan ».

173- Didier (Charles), *Promenade au Maroc*, Paris 1844, P : 177

174- محمد داود، *تاريخ تطوان*، م. س، مج 8، ص349 ـ 350.

175- نفسه، مج 8، ص 350.

176- نفسه.

دار ابن عمر	11		
دار التلمساني	04		
سكان دار الجيار	09		
دار ابن عمر	03		
دار الجيار	05		
رياض أفيلال فيه جزائير	05		
دار بابا عصمان	07		
دار الحاج عبد الجليل بن عمر	06		
دار التلمساني	06		
عند البناي عدة	18		

وتقع حومة الطرانكات غرب حومة البلد، يمر وسطها شارع أصلي طويل أوله قوس الحمام المتصل بالسوق الفوقي وآخره باب التوت. وهي من بناء مهاجري الأندلس، في أواخر القرن 10هـ/16م. وقد صارت بها فيما بعد "دار المخزن" أي مركز الحكم ومسكن حاكم البلد. مما أضفى على الحومة طابعا إداريا وسياسيا.

ويبدو أن حومة الطرانكات، استقطبت العديد من الأسر الجزائرية المهاجرة إلى مدينة تطوان. فساهمت بنصيبها في تعميرها والاستفادة من موقعها ووضعيتها إلى جانب أهالي تطوان، كما تعبر عن ذلك اللائحة المذكورة.

5 ـ حومة باب السفلي:

ذكر المؤرخ الفقيه محمد داود، أن السيدة فاطمة بنت محمد الشاوش كانت إحدى زوجات عبد السلام بن ريسون، وأنها كانت فريدة في جمالها وحسن أخلاقها[177] توفيت سنة 1307هـ / 1889م.

[177]- داود، م . س، مج 7، ص156.

وأورد الأستاذ محمد بن عزوز حكيم في كتابه "تطاونيات" أن فاطمة المذكورة "كانت بدون شك المرأة المغربية الوحيدة التي وجهت رسالة إلى السلطان مولاي الحسن الأول عند زيارته لتطاون، وقد أجابها جلالته برسالة مؤرخة في 10 محرم 1307هـ / 6 شتمبر 1889م "[178].

ومن خلال الروايتين ونصوص المصادر الأخرى، يتبيّن أن السيدة فاطمة تنتمي إلى عائلة الشاوش ذات الأصل الجزائري، والتي هاجرت إلى تطوان على إثر الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر (سنة 1830م). وأشار الباحث السوسيولوجي الفرنسي الاستعماري، ميشو بلير في بحثه عن القصر الكبير، إلى أفراد من هذه العائلة انتقلوا من تطوان إلى القصر الكبير، منهم عبد السلام بن محمد الشاوش[179]، الذي توفي به سنة 1893م.

ويبدو أن فاطمة المذكورة، هي أخت عبد السلام الشاوش، وأنها تزوجت في تطوان من القطب سيدي عبد السلام بن ريسون، حيث سكنت معه في داره بحومة باب السفلي، القريبة من حومة الصياغين التي توجد بها الزاوية الريسونية، المعروفة بأهميتها الدينية والسياسية في مدينة تطوان، وما قام به أقطابها وأتباعهم من أعمال ومشاركة في الحياة الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والدينية، ليس على الصعيد المحلي وإنما على صعيد المغرب كافة.

وكل هذا جعل من حومة باب السفلي وحومة الصياغين الأكثر إشعاعا في المنطقة - أي تطوان ونواحيها - بفضل رجالاتها الذين كانت لهم مشاركة لا جدال في قيمتها، في الميادين المذكورة، ومنها أيضا مشاركتهم في الأعمال الخيرية كما هو الشأن بالنسبة لقطب الأسرة الريسونية، عبد السلام بن ريسون الذي برّ بالمهاجرين الجزائريين كما سلف ذكره.

وإن الرسالة التي رفعتها فاطمة بنت محمد الشاوش، تدل على مشاركة هذه المرأة الجزائرية الأصل زوجها، في الشؤون السياسية والاجتماعية لمدينة تطوان، وإن كنا

---

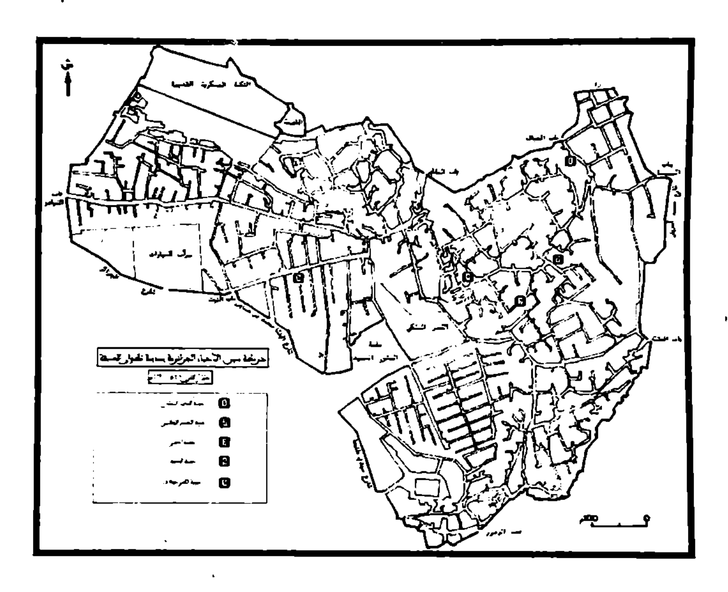
[178] - ابن عزوز حكيم، *تطاونيات في ذاكرة التاريخ*، تطوان 2001، ص.6.

[179] - Michaux Bellaire, El Qçar El Kibir, in *Archives Marocaines*, T.2. Paris 1905, P : 205.

نجهل نوعية المراسلة التي رفعتها إلى السلطان المولى الحسن ! إلا أن تقديمها له، وجوابه عليها، يفيد بمكانة هذه المرأة ودورها على مستوى المجتمع التطواني والمجتمع المحلي، في حومة باب السفلي وحومة الصياغين.

بهذا يمكن اعتبار الحومتين المذكورتين،من الحومات ذات الميزة التواصلية، والانصهارية، والحميمية، بين أهل تطوان والجزائريين المهاجرين.

خريطة تبيانية لسكنى الجزائريين بأحياء تطوان العتيقة خلال القرن 13هـ/19م



خاتمة

من خلال ما سبق، يبدو جليا أن الجزائريين توزعوا في أحياء مختلفة من النسيج الحضري التطواني، خاصة في الأحياء الحيوية والنشيطة، من حيث الحرف والتجارة والثقافة، بدون تمييز بينهم وبين أهل تطوان. فساهموا فيها بشكل جلي، ووصل بعضهم

إلى أعلى المراتب الاجتماعية، ومنهم من كان ضعيفا وفقيرا، مثلهم في ذلك مثل سكان تطوان والمغرب عامة. والملاحظ عموما أن كيفية سكناهم فيها، اتخذت ثلاثة أنماط:

النمط الأول: السكنى الخيرية. ويتجلى في الدّور التي حُبّست على الضعفاء منهم والمساكين والمحتاجين، فسكنوا فيها إما لفترة قصيرة أو طويلة حسب وضعية كل غائلة منهم. وهذا النوع من الإسكان مما يدخل في باب التكافل الاجتماعي السكني. ساهمت فيه أسر ميسورة ونافذة في المدينة (نموذج الأسرة الريسونية).

النمط الثاني: السكنى الممنوحة، وهو نوع من الإسكان الذي يُنفذ عن طريق منح وتفويت دور سكنية لهؤلاء الجزائريين، من غير كراء أو تكلفة تلزمهم، بتدخل من السلطات المخزنية العليا في البلاد، الممثلة في شخص السلطان، الذي كان يراسل عماله بتنفيذ أوامرهِ في هذا الشأن. وذلك مراعاة لظروف المهاجرين ووضعيتهم الاجتماعية.

النمط الثالث: السكنى الذاتية. ونقصد بها عملية شراء أو كراء الدور، من طرف الجزائريين أنفسهم من أجل السكنى بها. وهي العملية التي أقبل عليها مجموعة كبيرة من الجزائريين منهم: الأعيان والأغنياء والتجار والحرفيون وغيرهم.

ويبدو أن هذا النمط كان هو الغالب على الأنماط الأخرى، نظرا لكثرة أعداد المهاجرين وعجز المخزن المغربي الذي كان يعاني الفاقة، وقلة المحسنين المانحين من الأسر التطوانية، بالمقارنة مع عدد الجزائريين المهاجرين المحتاجين، الذين كانوا في زيادة مطردة. ومع ذلك، يُمكن القول أن التكافل الاجتماعي في مجال السكن، كان معمولا به ويُنفّذ بسهولة ويُسر، وذلك تبعا للثقافة المحلية التي تطغى عليها الثقافة الإسلامية، التي من مبادئها التكافل الاجتماعي والتضامن بين الفئات الاجتماعية المختلفة المراتب. وهو سلوك معتبر يُبوّأ المُجتمع التطواني ضمن المجتمعات الإسلامية المغربية المُتضامنة والمتحضرة.

الفصل السادس

بعض مظاهر التأثيرات الجزائرية العثمانية في الحياة الثقافية والاجتماعية بتطوان*

مقدمة

إذا كانت بلاد المغرب الأقصى وعامة دول شمال إفريقيا، قد تعرضت لموجات من التأثيرات الحضارية الأجنبية، منذ فجر التاريخ وبشكل متفاوت، ابتداء من التأثيرات الفينقية والرومانية وخاصة العربية والأندلسية، ثم الإسبانية والفرنسية، فإننا نلاحظ أيضا، وجود بصمات واضحة للتأثيرات العثمانية، التي تغلغلت داخل كيان الحضارة المغربية وبصفة متميزة منذ العصر السعدي، أي مع بروز الإمبراطورية العثمانية بقوة، على المستوى العالمي، عسكريا وسياسيا وحضاريا، واحتلالها لمجموعة من الدول العربية باستثناء المغرب. ومن أكثر المدن المغربية، تأثرا بأساليب الحضارة العثمانية، مدينة تطوان ثم مدينة فاس.

إن موضوع التأثيرات العثمانية، في الحياة الثقافية والاجتماعية بتطوان، يحيلنا حتما إلى عناصر أساسية، تعد من العوامل الفاعلة فيها. نذكر منها على وجه الخصوص: موقع تطوان الجغرافي الاستراتيجي من جهة، وعلاقات تطوان بالجزائر العثمانية من جهة أخرى؛ باعتبار الجوار والحركات السكانية بين البلدين، والتي كان لها النصيب الأوفر، في إدخال عدد لا بأس به من التأثيرات العثمانية إلى مدينة تطوان خاصة والمغرب عامة، خصوصا وإننا نعلم، أن الجزائر كانت إحدى الإيالات العثمانية منذ القرن 16م، إلى أن احتلتها فرنسا في إطار سياستها الاستعمارية الاستيطانية سنة 1830م.

---

* نشر هذا المقال في مجلة *أوفشوت (OFFSHOOT)*، المجلد 3، العدد [illegible] 2000، منشورات مجموعة البحث في الترجمة والدراسات المقارنة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، الصفحات 19-37.

المبحث الأول: العوامل المساهمة في عملية التأثيرات

1 ـ الموقع الجغرافي

بديهي أن يؤثر الموقع الجغرافي لمدينة تطوان الاستراتيجي، بشكل جلي في طبيعة علاقات المدينة بالمدن والدول المجاورة، سواء العربية والإسلامية أو الأوربية، على جميع المستويات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وكذا الثقافية، والحضارية بصفة عامة. ولأهمية الجغرافيا في سيرورة الإنسان وحضارته، برز بعض المفكرين والمنظرين من قال بنظرية توجيه الجغرافيا للتاريخ، بمعنى أن الجغرافيا ومنها التضاريس، والمناخ، والموقع، هي التي توجه ثقافات الشعوب ومستقبلها. وبناء على هذه النظرية، يمكن اعتبار أن الموقع الجغرافي لمدينة تطوان والجزائر والدولة العثمانية، على البحر الأبيض المتوسط ـ مهد الحضارات ـ فرض عليها علاقات واتصالات دائمة ونشيطة عبر العصور. مما أدى إلى تعميق الروابط الدينية، والعرقية، والثقافية، والحضارية بشكل عام.

وباعتبار هذا الموقع الذي يحتله المغرب فقد عرف عبر مراحله التاريخية المختلفة وفود العديد من الشعوب ذوي ثقافات وحضارات مختلفة، منها: الفينيقيون والرومان والبيزنطيون، ومع ظهور الإسلام جاء الفاتحون العرب المسلمون الذين أدخلوا ونشروا اللغة العربية والدين الإسلامي في مدنه وقراه. وخلال الفترة الحديثة نزلت الدول المسيحية بشواطئه بغرض الاستيلاء على المراكز الحيوية بالبلاد، ونخص بالذكر، إسبانيا والبرتغال؛ وهما الدولتان اللتان تزعمتا حركة الكشوفات الجغرافية في العالم خلال القرن 15م. وفي نفس الفترة التاريخية ظهرت الخلافة العثمانية كقوة عظمى في العالم، والتي كانت تجاور المغرب باعتبار سيطرتها على الجزائر. وكم تحرقت شوقا إلى ضم هذا الجزء الغربي من شمال إفريقيا إلى حظيرتها لاستكمال توسعاتها الخارجية في العالم العربي وشمال إفريقيا.

ومع نهاية القرن 19 وبداية القرن 20م، عرف المغرب مرحلة حاسمة من تاريخه؛ تمثلت في ظهور الحركة الإمبريالية الاستعمارية الغربية، التي لم تتوان عن بث سيطرتها عليه بكل ما لديها من قوة تكنولوجية عسكرية ودهاء سياسي. انتهت فصول احتكاكها

به إلى فرض الحماية على البلاد واقتسامها بين فرنسا وإسبانيا سنة 1912م، وفتح أبوابها أمام تأثيرات حضارية أوربية لتنضاف إلى التأثيرات العثمانية التي كانت قد استقرت في ربوع البلاد وبصفة خاصة في مدينة تطوان التي كانت باعتبار موقعها ـ كما مرّ بنا ـ فضلا عن أهميتها السياسية والديبلوماسية، على علاقة بالدولة العثمانية.

2 ـ علاقات تطوان بالجزائر العثمانية

تعد تطوان من بين المدن المغربية التي لها تاريخ ديبلوماسي حافل. يعبر عن حقيقة الأدوار السياسية والديبلوماسية لهذه المدينة مع الدول المجاورة داخل النسق المخزني للمغرب، وخصوصا مع الجزائر العثمانية. كما كانت تطوان مركز السفارات الأجنبية ومكان انطلاق بعثاتها نحو عاصمة المخزن المغربي، وكما كانت نقطة خروج السفراء المغاربة إلى الدولة العثمانية. نتج عن كل ذلك توثيق الروابط المغربية العثمانية وتبادل التأثيرات الحضارية.

هذه المكانة السياسية المتميزة، تتجلى بوضوح ـ على سبيل المثال ـ من خلال رسالة موجهة من السلطان مولاي سليمان، بواسطة السفير محمد بن عثمان المكناسي، بعد تولية هذا الأخير منصب النيابة عن السلطان في المفاوضات، والاتصال بالسفراء الأجانب، الذين كانوا يقيمون بطنجة وتطوان، ومما جاء فيها: " فاعلموا أن كاتبنا الفقيه محمد بن عثمان تعرفون منزلته عندنا وعند سيدنا الوالد رحمه الله، صدقا وأمانة ... ولهذه الحالة المعروفة عندنا، بعثناه لثغر تطوان وولّيناه أمرها وأمر ما فيها. مفوضا له في ذلك، وقد حملنا على بعثه وتوليته غرضان أحدهما أن تطوان أعظم ثغور المسلمين ومقصد لكل واحد من المسلمين ومن أجناسهم وهذا سبيل باعث على تمشية أمور المسلمين على ما يناسب"[180]. ومن المعروف أن كثيرا من أهل تطوان تقلدوا مناصب سامية في عهد الدولة العلوية. فكان منهم وزراء، وكتاب بلاط، وسفراء، وأمناء، والبعض منهم توجه

---

[180] ـ الرسالة مؤرخة ب 16 ربيع الأول سنة 1207 / 22 أكتوبر 1792.
انظر: محمد الفاسي، مقدمة تحقيق *الإكسير في افتكاك الأسير* لمحمد بن عثمان المكناسي، مطبعة أكدال. الرباط (بدون تاريخ).

في سفارة إلى الدولة العثمانية، في مهمات تختلف باختلاف ظروف العلاقات المغربية العثمانية. نذكر من هذه السفارات:

- سفارة عبد الكريم راغون التطواني، الذي توجه إلى الدولة العثمانية سنة 1180 هـ / 1765م، وفي السنة الموالية 1181 / 1766[181].
- سفارة عبد الكريم العوني التطواني وهو أحد أعيان تطوان اختاره السلطان محمد بن عبد الله سفيرا إلى الدولة المذكورة[182].
- سفارة الأمين عبد الله الشرايبي التطواني الأندلسي بمعية القائد امبارك بن هماد.
- سفارة الحاج العربي ابريشة التطواني.

هذا فضلا عن شخصيات سفارية تطوانية أخرى لا مجال لذكرها، مما يدل على المكانة الديبلوماسية لتطوان وأهلها، في ربط العلاقات بين تطوان والدولة العثمانية من جهة والمغرب والدولة العثمانية من جهة أخرى. فكان من المفروض أن يتأثر السفراء التطوانيون المغاربة بالمعطيات الحضارية العثمانية.

هذه المعطيات، زادتها ترسيخا وثراء، الحركات السكانية بين الجزائر وتطوان خاصة هجرة الجزائريين إلى مدن وبوادي المغرب وعلى رأسها حاضرة تطوان.

3 - الهجرات الجزائرية العثمانية إلى تطوان

باعتبار الروابط الجغرافية، والدينية، والعرقية، والثقافية، ظل المغرب والجزائر على مدى قرون عديدة كالقطر الواحد؛ حيث كان سكان القطرين يتنقلون بحرية تامة، لا يفصلهم عن النقل والتنقل بين هذا البلد وذاك أدنى حاجز. وكانت لهذه الحركات السكانية أبلغ الأثر في التلاقح، والامتزاج، والتأثير، والتأثر.

وهكذا كان الإنسان الجزائري وما يزال إلى حد الآن، يحط الرحال بالمغرب على إثر أي نازلة حلت به. فكان يجد فيه سعة الصدر والسلوة والسلوان.

---

181 - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، *الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى*. دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ص 31.

182 - ابن زيدان عبد الرحمان، *إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس*، الطبعة الثانية، 1990، ج 3، ص 301.

لقد كان المغرب دوما، محط استقطاب للأفراد والجماعات، من سائر أنحاء الدول العربية وخاصة من الجزائر. وأسطع نموذج على ذلك، الهجرة الكبرى للجزائريين والعثمانيين على إثر الاحتلال الفرنسي لبلدهم سنة 1830م حيث أخذت أفواج منهم ترد على المغرب برا وبحرا[183]. ففي هذه الفترة الحالكة من تاريخ الجزائر (أي سنة 1830م)، سجلت تطوان صفحة من أروع الصفحات في التآزر المغربي الجزائري، حيث قامت بدور تاريخي سجله لها التاريخ بمداد الفخر والاعتزاز، إذ لم يقف أهلها عند حد التعبير عن عواطفهم الجياشة، بل قاموا بما يتطلبه الموقف الحرج أحسن قيام، بدءا باستقبال الأسر والأفراد المهاجرين إلى تقديم المساعدات المادية والمعنوية وحتى العسكرية، يقول التهامي الوزاني في هذا الصدد: "أخذ الأمير عبد القادر يستنجد ويكاتب أعيان المغرب وعلماءه، فكان من جملة من يكاتبهم في ذلك، الشيخ سيدي محمد الحراق الذي كان كغيره من العلماء وباقي المسلمين يعطفون على الجزائر وجهادها. وكان التطوانيون بالخصوص لهم عطف زائد على إخوانهم في الجزائر حيث كان تصلهم الأنباء عن قرب من بلاد الريف. وقد عرف الجزائريون أن المغاربة التطوانيون يشاركونهم في ألمهم. فطفق أهل العلم والخير وقوم من المستضعفين يلتجئون إلى تطوان فكانوا يصلونها أفرادا وجماعات في أوقات مختلفة، فأدخلوا معهم إلى تطوان العوائد التركية وكثيرا من ثقافة الجزائر وأخلاقها. فأخذ التطوانيون يأخذون عنهم الحضارة التي جاءوا بها وكان التطوانيون يحسنون إلى المستضعفين من المهاجرين"[184].

ولما كانت تطوان في مقدمة المدن المغربية، التي انتقل إليها عدد كبير من أهل الجزائر ونواحيها وكذلك من مدن أخرى، مثل: قسنطينة، ومستغانم، ووهران، فقد كان مهاجروها محط اهتمام خاص من لدن المخزن؛ لأن عددا مهما منهم كان من الفقراء. لذا لم يتوان السلطان المغربي مولاي عبد الرحمان بن هشام في البر بهم، والعمل على تلبية مطالبهم، وإعانتهم على الاستقرار والاستيطان بالمدينة.

183 ـ إبراهيم حركات، *المغرب عبر التاريخ* ، الدار البيضاء، 1985، مطبعة النجاح الجديدة، ج3، ص 216.

184 ـ التهامي الوزاني، *الزاوية*،تقديم ومراجعة عبد العزيز السعود، منشورات جمعية تطاون أسمير، مؤسسة التهامي الوزاني للثقافة والتراث ومركز التوثيق والدراسات حول شمال المغرب، تطوان، 1999، ص 195.

وقد ذكر مؤرخ تطوان أحمد الرهوني، عددا لا بأس به من الأسر الجزائرية التي أقامت بتطوان في كتابه "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين"، وخاصة في الجزء الثالث منه[185].

كما أن المؤرخ التطواني الكبير محمد داود، لم يهمل هذا الموضوع. فجاء كتابه تاريخ تطوان طافحا بالوثائق والمعلومات، عن ظروف وملابسات هجرة الجزائريين إلى تطوان واستقرارهم بها. ومن ذلك، إثباته للائحة بأسماء الأفراد الجزائريين والعثمانيين الأصل الذين هاجروا إلى تطوان[186]. فكان لهذه الهجرة، دورا أساسيا في إدخال تأثيرات اجتماعية ثقافية وحضارية إلى تطوان. يقول محمد التهامي الوزاني في هذا الشأن: "فأدخلوا - أي الجزائريون - معهم إلى تطوان العوائد التركية وكثيرا من ثقافة الجزائر وأخلاقها. فأخذ التطوانيون عنهم الحضارة التي جاءوا بها وضموها إلى الحضارة الأندلسية المغربية التي كانت موجودة بالبلد"[187].

المبحث الثاني: مظاهر من التأثيرات العثمانية

1 - في الحياة الثقافية

فيما يتعلق بالتأثيرات العثمانية اللغوية يقول مؤرخ تطوان أحمد الرهوني: "من المعلوم أن سكانها - أي سكان تطوان - أخلاط من عرب نازحين إليها من الأندلس وغيرها. و من بربر أصليين ونازحين ومن نصارى ويهود وعرب الأندلس أتوا بعربية وبربرية وإفرنجية. كما أحدثوا في العربية هيأة جديدة وصبغة غير صبغتها الأصلية. طبق ما حدث في جميع البلاد العربية كما خلطوها بشئ من الألفاظ التركية التي نقلها إليها مهاجرو الجزائر عندما استولت الدولة الفرنساوية على قطرهم عام 1246هـ"[188].

---

[185] - أحمد الرهوني، مخطوط *عمدة الراوين في تاريخ تطاوين*، يوجد في المكتبة العامة والمخطوطات تحت رقم 1082، ج 3، ص 7، 12، 14، 34، 41، 115، 116 وغيرها. (وقد حقق هذا الجزء من الكتاب ونشر في السنوات الأخيرة)

[186] - محمد داود، *تاريخ تطوان*، م .س، مج 8، ص 201 – 206.

[187] - التهامي الوزاني، *الزاوية*، م . س، ص 195.

[188] - الرهوني، *عمدة الراوين*، م . س، ج 3، ص 2.

إن اختلاط الكلمات العثمانية بالكلمات العربية التطوانية زاد في إغناء المفردات المغربية بكلمات وألفاظ جديدة تطلق بطبيعة الحال على الأشياء التي لم يعرفها المغاربة، أو لم يستعملوها في حياتهم العامة قبل اتصالهم بالعثمانيين. وبمرور الزمن، صُهرت هذه الألفاظ الدخيلة في بوتقة المجتمع انصهارا. واحتفظت بالمعاني التي كانت تؤديها في وطنها الأم، وظلت تعيش بجانب زميلاتها من الألفاظ العربية، إلى أن مرّ زمن طويل نسي الأهالي فيه أصل هذه الألفاظ، وتكلموا بها كجزء من لغتهم، يعبر عن مشاعرهم ويترجم عن إحساسهم.

كما دخلت مع هذه الألفاظ، قواعد جديدة وصيغ جديدة، لا شبيه لها في العربية. ولم يكن دخول هذه الألفاظ، غير تحويل طبيعي أو تغيير تدريجي، طرأ على اللهجة، كما طرأ على غيرها من اللهجات العربية الحديثة[189]. فانعكس التأثير اللغوي على الثقافة التطوانية بصفة عامة، حتى أصبحت تطوان تقترن بالثقافة العثمانية، وهذا ما ذهب إليه المؤرخ جون لوي مييج[190] حين اعتبر أن ثقافة مدينة تطوان تكتسي صبغة خاصة يغلب عليها الطابع العثماني الجزائري الذي انعكس في مظاهر الحياة اليومية.

وهذه لائحة بأهم الألفاظ والمصطلحات التي يُعتقد أنها عُثمانية الأصل ودخلت إلى المعجم اللغوي العامي لأهل تطوان. وهي تُعدّ من أبرز التأثيرات الثقافية[191] في المدينة:

- اخوانجي: مصطلح يطلق على المؤيدين لجماعة الإخوان المسلمين.
- أوتاق - لوتق: الخيمة المخصصة لسفر السلطان.
- أطلس: ثوب من الحرير.
- بارود: مسحوق الرصاص.
- الباشا: الحاكم أو الرئيس والي المدينة.

---

[189] - عبد المنعم سيد عبد العال، *لهجة شمال المغرب*، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1986، ص 53.

[190] - Miège, *Tétouan à travers les siècles*, Imp. Hidaya, Tétouan, 1996, p. 27.

[191] - فيما يتعلق بهذه الألفاظ والمصطلحات انظر

- أحمد الرهوني، *عمدة الراوين في تاريخ تطاوين*، الجزء الثالث.
- عبد المنعم سيد عبد العال، *لهجة شمال المغرب: تطوان وما حولها*.
- Metin Akar, « Les mots turcs dans le dialecte arabe du Maroc *: Colloque : Le Maghreb à l'epoque ottmane* 1 er édition Najah Eljadida, Casablanca, 1999

- البشماط: قطع الخبز المحمر.
- بنديرة: علم البلد أو الراية.
- بدنجال أو "دبنجال" "بادنجال": نوع من الخضر يستعمل في الأكل
- بقرج أو "بقليج" إناء الماء.
- بخشيش: أو بقشيش هبة مكافأة كما تعني الرشوة.
- براني: غريب.
- برشمان: خيط أو شرائط من حرير أو صوف.
- برنامج: فهرس.
- بزاف: كثير.
- بزطام: محفظة أو كيس لوضع النقود.
- بصطيلة: نوع من الطعام الفاخر. (وأغلبية أهل تطوان ينسبون هذا النوع من الأكل إلى الأندلس)
- بقلاوة: حلوى أو كعكعة.
- بيدق: قطعة من الحجر أو غير ذلك في لعبة الشطرنج.
- بلار: نوع من الزجاج الفاخر اللامع.
- بنفسج: نوع من الزجاج الفاخر اللامع.
- بستان: حديقة.
- بوغاز: قناة أو مضيق.
- بهلوان: الشخص الذي يقوم بحركات وألعاب بهلوانية.
- طبسيل: صحن أو طبق من خزف أو معدن.
- جابدور: نوع من لباس الرجل.
- خردة: النفايات والبقايا غير الصالحة.
- خيار: نوع من الخضر يستعمل غالبا في تحضير الشلاظة.
- دباشير: طباشير.
- دربوكة: الطبل أو الدف.

- درويش: الإنسان المسكين. اللطيف.
- دغري: الإنسان الشريف المتعقل والعادل.
- شاوش: العون أو الحارس.
- طانجرة، طانجية، طاوة: قدر من طين أو معدن.
- فنار: *مصباح*.
- فنجان: كوب أو قدح من القهوة أو الشاي.
- قرش: غرش جمع غروش: النقود.
- قشلة: قصبة ثكنة عسكرية.
- كرافس: نبات عطري يستعمل في الطهي.
- كشك كوشك: دكان صغير.
- مقراج: إبريق.
- نقرة: الفضة.

2 - في الحياة الاجتماعية

من مظاهر التأثيرات العثمانية والتي كان للمهاجرين الجزائريين دور أساسي فيها التأثيرات في الحياة الاجتماعية بتطوان عن طريق ترسيخ بعض العوائد في اللباس والأكل والشرب وغيرها نذكر منها:

أ- اللباس:

- القفطان: نوع من اللباس الفضفاض، كان يرتديه الرجال. وقد وردت إشارات في الرسائل السلطانية المتبادلة بين السلطان عبد الرحمن بن هشام وقائد تطوان أشعاش، تدل على ارتداء التطوانيين للقفطان منها: "نأمر خديمنا القائد عبد الرحمان أشعاش أن يدفع لخيل أهل تطوان الواردين من حضرتنا قفطان ملف. لكل واحد منهم"[192]. أما انتشاره وشيوعه في المجتمع المغربي، فقد بدأ في عصر السعديين.و مع مرور الزمن أصبح

[192] - محمد داود، *تاريخ تطوان*، م . س، مج 8، ص 52.

هذا اللباس يشهد إقبالا لا مزيد عليه من طرف النساء مع إدخال تجديد في نوعية الثوب والخياطة.

- البدعية: تم استعمال لباس البدعية والجابدور وسراويل الملف المطروزة بالحرير، على نطاق واسع بتطوان. فقد ذكر التهامي الوزاني في كتابه "الزاوية" شخصية محمد الصفار أحد وجهاء تطوان أنه "كان يلبس بدعيتين وجابدور وسراويل من الملف من لون واحد وكل ذلك مطرز بالحرير الهندي وفوق ذلك كساء بزيوي. وفي طوقه ساعة من ذهب سلسلتها من نفس المعدن"[193]، كما تحدث عنها أحد الباحثين في تاريخ تطوان فقال: "عم في الأوساط الثرية بتطوان استعمال البدعية والجابدور وسراويل الملف التي كانت مطرزة بالحرير"[194].

- الجابدور: قفطان من ملف ونحوه. وهو لباس يتميز بالسروال والقميص الواسعين.
- الفرجية: ثوب فضفاض. كان من اختصاص العلماء.
- السبنية: خرقة من الثوب مربعة الشكل.
- الشال: خرقة مثل السبنية. لكنها أطول.
- الطربوش التركي: عمامة حمراء اختص بارتدائها أهل المدن والطبقة المثقفة وغالبا ما كان يصاحب هذا الطربوش "السبحة" أو "التسبيح".
- الفسطان أو الفستان: نوع من اللباس الخاص بالنساء.
- الشنطة: حقيبة.
- النقرة: الفضة.

ب - **الأكل:**

إذا كان المجتمع التطواني، قد تأثر في حياته اليومية ببعض الألبسة والمصطلحات اللغوية العثمانية، فقد تأثرت المائدة التطوانية - هي أيضا - بأصناف وأطباق جميلة من المأكولات، والحلويات العثمانية الجزائرية. نذكر منها على سبيل المثال:

---

[193] - التهامي الوزاني، *الزاوية*، م. س، ص 164.

[194] - عبد العزيز السعود، *تطوان في القرن التاسع عشر*، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الحداد يوسف إخوان (الهداية)، ط. 1، تطوان، 1996، ص 50.

ـ الباصطيلة: تعد من الأطعمة الفاخرة التي تزخر بها المائدة التطوانية. وهناك من يقول على أنها أندلسية الأصل.

ـ بقلاوة: نوع من الحلويات المعروفة بمدينة تطوان.

ـ الضلمة: وهو اللحم المفتت المحشو في رؤوس الخرشوف.

ـ الملاوي: نوع من الرغيف.

ـ الكفتة: اللحم المطحون يشوى أو يطبخ.

ـ القهوة: تعودت البيوت التطوانية على شرب القهوة المعدة بالطريقة الجزائرية العثمانية وكان الرجل التطواني يتردد على مقهى الجزائريين بساحة الوسعة لاحتساء كأس القهوة من يد قهواجي جزائري[195].

وحاولت المرأة التطوانية، إجادة صنع القهوة. فكان من عادة المرأة وإلى يومنا هذا، تقديم القهوة في الصباح والمساء بطابع جزائري تطواني الملامح. ولا نعدم أمثلة أخرى من الأكل، ذي التأثير العثماني في الولائم والمطابخ التطوانية.

ومن العادات والتقاليد الجديدة، التي لم تكن منتشرة من قبل في مدينة تطوان، فيها المستحسن والمستهجن، نذكر من هذه الأخيرة على سبيل المثال:

ـ عادة تقديم الهدايا للموظفين، لتسهيل خدمات العموم أو ما يسمى ب "البقشيش" و"الحلوان" حسب التعبير التركي. فقد كان كل زائر أجنبي مطالب بتقديم" البقشيش" للحرس الذي كان يرافقه، أو لمن يحمل إليه نبأ سارا، أو الذي يسهل له خدمة إدارية[196].

ـ ثم هناك عادة انتشار شرب القهوة في المقاهي. وازدياد الإقبال على حرفة "القهوجية" بين أوساط الشباب التطوانيين، وظهور المقاهي البلدية على الطريقة العثمانية لأول مرة بالمغرب. وقد حمل رب المقهى وصف "القهواجي". وكذلك انتشار ما يسمى

---

[195] ـ فيما يخص هذه المصطلحات انظر: أحمد الرهوني، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، الجزء الثالث. وعبد المنعم سيد عبد العال، *لهجة شمال المغرب: تطوان وما حولها*، ص 49.

Metin Akar, *Les mots turcs dans le dialecte arabe du Maroc*, pp. 44 , 51 – 60.

[196] ـ إبراهيم حركات، *السياسة والمجتمع في العصر السعدي*، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1987، ص 232.

ب "الغليون" البلدي. أو "السبسي" وهو من أصل تركي حسب الرواية الشفوية لأهل تطوان.

يضاف إلى ذلك، إدخال بعض الآلات الموسيقية إلى الفن الموسيقي التطواني. مثل: "الكمان" أو الكمنجة وآلة "الغيطة" و "الدربكة" و "الطبل" وغيرها.

خاتمة

بدا لنا، من خلال ماسبق، أن أصالة تطوان الثقافية والاجتماعية، لم تكن نتاج حضارة تطوانية أوأندلسية محضة، بل كانت تلاقحا فكريا وإثنيا، منح في الأخير لتطوان مجتمعا تطبعه الدينامية والارتقاء إلى ما هو أفضل.

وبهذا يمكن اعتبار التأثيرات العثمانية في مختلف المجالات الحضارية في تطوان، من الأصول الحضارية التي سادت في المدينة، وفكّر بها أهل تطوان، ومارسوها في حياتهم اليومية، ومازالوا يمارسونها إلى الآن. ويعود الفضل الكبير في دخولها وسيادتها بها، إلى المهاجرين الجزائريين خاصة في القرن 13هـ/ 19م،سواء كانوا من أصول عربية أو عثمانية.

وكل هذا، يدل دلالة واضحة، على انفتاح المدينة على تأثيرات خارجية منذ تأسيسها، أو بالأحرى منذ إعادة تأسيسها على يد المهاجرين الأندلسيين، وإلى حدود القرن 13هـ/19م، بل وإلى الآن، في إطار انفتاح المدينة على محيطها الدولي.

الفصل السابع

إسهامات الجزائريين الثقافية في تطوان خلال القرن 13 هـ / 19م*

مقدمة

لم يشذ كتاب الاستعمار عن القول في أطروحاتهم - بأن المهاجرين الجزائريين إلى المغرب خلال القرن 13 هـ / 19، عانوا الأمرين: الغربة والعزلة، بل القهر والاحتقار من طرف سكان المغرب وسلطتهم المخزنية العليا. وذلك في دراساتهم الاجتماعية وتقاريرهم السياسية المرفوعة إلى الإدارة الفرنسية، والتي جعلت من وضعية الجزائريين في بعض المدن المغربية، منها فاس ووجدة على سبيل المثال، موضوعا لها[197].

وفي الاتجاه المعاكس المغاير لهذه المقولة، أسهبت المصادر المغربية والجزائرية، في تبيان اندماج المهاجرين الجزائريين مع سكان المدن المغربية التي حلوا بها وجعلوها مستقرا لهم، وانصهارهم في الحياة الاجتماعية بمختلف مستوياتها من أعلى طبقة اجتماعية إلى أدناها، شأنهم في ذلك شأن المغاربة قاطبة. يتبين ذلك على سبيل المثال، من

---

* هذا النص شاركت به في ندوة دولية موضوعها " تطوان: السياسة والثقافة من القرن 16 إلى القرن20 م" من تنظيم فرقة البحث في تاريخ المغرب والأندلس وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمرتيل أيام 12و13و14دجنبر2007. وأعمال الندوة قيد الطبع.

[197] - نذكر منها على الخصوص:

- Michaux – Bellaire, Les Musulmans d'Algérie au Maroc, in *Archives Marocaines*, Paris, VXI, 1907

- Mougin (capitaine), *Les Algériens à Oujda*, in *Renseignements coloniaux et documents.* N° 9 Septembre 1908.

Alfred le Chatelier, Les Musulmans au Maroc et en Syrie, *Revue du Monde Musulman*, T. II, Paris, 1907.

خلال الوثائق المخزنية (رسائل سلطانية، وحوالات حبسية، وشهادات عدلية)، والتواريخ الوطنية والمحلية، والمذكرات، والخواطر، والشواهد المختلفة.

المبحث الأول: مدى اندماج الجزائريين في المغرب وإسهاماتهم فيه

من دون شك، إن من بين علامات ودلائل اندماج الجزائريين في الحياة المدينية المغربية العامة، التي تؤكد بطلان أطروحة التأليف الاستعماري ومن نحى نحوه، انخراطهم في المجتمع المغربي وإسهاماتهم المتعددة فيه، ودفاعهم عن الهوية الحضارية العربية الإسلامية، ووحدة المغرب، ووقوفهم إلى جانب المغاربة ضد الاحتلال الأجنبي الفرنسي والإسباني، مما يومئ إلى انبثاق أفكار، نعدها من أصول الحركات الاستقلالية في المغرب العربي خلال القرن 13 هـ / 19م.

فما ليس فيه شك، أن المهاجرين الجزائريين إلى المدن المغربية في القرن 13 هـ / 19م، خاصة بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر العاصمة سنة 1246هـ / 1830م، ساهموا بنصيب وافر في الثقافة المغربية والاقتصاد والصناعة الحرفية والسياسة، سبيلهم في ذلك سبيل المغاربة. فلم يكونوا منعزلين ومنغلقين على أنفسهم أو منبوذين مقهورين على أمرهم كما تدعيه أطروحة كتاب الاستعمار، ومن الأدلة على ذلك، إسهاماتهم العديدة والمتواترة في مختلف الأنشطة بالبلاد، ونسوق كمثال على ذلك شغل بعضهم لمناصب سياسية سامية، ومهام مخزنية خطيرة. ومن الأمثلة على ذلك، تعيين شخصيات من عائلة المقري في الصدارة العظمى، والمالية، والباشوية في العهد الحفيظي، وتعيين محمد بن الحسن الحجوي في التدريس بجامعة القرويين، وأمين ديوانة وجدة سنة 1900، وتعيينه نائبا عن السلطان المولى عبد العزيز في الحدود المغربية

الجزائرية، وأمين الأسلحة والذخائر هناك، ومكلفا بتطبيق أوفاق 1901 و 1902 بين المغرب وفرنسا. هذا فضلا عن توليته منصب الوزير والنيابة عن الصدر الأعظم، في وزارة العلوم والمعارف. ومن الأمثلة على ذلك أيضا، تعيين السلطان المولى الحسن أبي حامد العربي المشرفي كاتبا في بلاطه، وجعله مرافقا له في ارتحاله وحطه. فهو الذي صحبه في حركته إلى شمال المغرب، حيث كانت تطوان وطنجة وأصيلا وغيرها من المدن والقبائل المغربية، من المحطات الرئيسية لهذه الحركة سنة 1307هـ / 1889م. كما كان أبو حامد العربي المشرفي من الفاعلين الثقافيين المرموقين في مدينة فاس، فبالرغم من بقائه مغمورا بين مثقفي ومفكري عصره، مثله في ذلك، مثل باقي المثقفين المغاربة الذين طالهم النسيان، فإنه كان ذو قلم لا يعرف الكلل، ومداد لا ينضب، ونشاط غير معهود. يتبين ذلك من خلال إسهاماته الفكرية الكتابية المتعددة الأجناس الثقافية، فمن كتاب "نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار" في جنس الرحلة، إلى كتاب "الحسام المشرفي" في جنس الجدال الكلامي والتعريف بالزوايا، ومن كتاب"ياقوتة النسب الوهاجة " في علم الأنساب والبيوغرافيا إلى كتاب "ذخيرة الأواخر والأول" في تاريخ الدول، هذا فضلا عن تآليف أخرى لا داعي لسردها هنا. ونفس الشئ يقال عن أبي عبد الله محمد المشرفي صاحب التآليف الجريئة والمتعددة الموضوعات خاصة في حقل التاريخ[198] والأنساب والأدب. وهو الذي شغل منصب القضاء، في العهد الحسني والعزيزي والحفيظي. يضاف إلى ذلك، إسهامات مهاجرين جزائريين آخرين عديدين، في الحقل الثقافي والسياسي والاقتصادي بمدينة فاس، وكما في مدن مغربية أخرى، مما يدل على نوع من الانسجام والاندماج في الحياة المغربية

---

[198] ـ أنجزنا دراسة وتحقيقا لكتابه الموسوم: *الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية*، وصدر في جزأين، ضمن منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط ـ المغرب سنة 2005.

حينئذ، بإيجابياتها وسلبياتها. فإذا كان البعض منهم قد نال حظوة ومكانة في مغرب القرن 13 هـ / 19م وبداية القرن 14 هـ / 20م، فإن البعض الآخر عانى من الفقر والضياع وقهر الزمان، مثلهم في ذلك مثل عامة سكان المغرب، الذي كان يعيش في أزمة اقتصادية واجتماعية وسياسية، لأسباب داخلية بنيوية مزمنة، وأسباب خارجية طارئة في ظل عصر سيادة الأنظمة الإمبريالية العالمية.

ولم تكن مدينة فاس وحدها، التي برز فيها الجزائريون كمساهمين في مجتمعها ثقافيا وسياسيا واقتصاديا، وإنما ظهرت إسهاماتهم أيضا، في مدن مغربية أخرى مثل تطوان، ووجدة والقصر الكبير ومراكش.

ونحن في هذه الدراسة، سنتطرق إلى إسهامات الجزائريين في الحقل الثقافي بمدينة تطوان خلال النصف الثاني من القرن 13 هـ / 19م.

وبما أن مفهوم الثقافة مفهوما واسعا يشمل تجارب الإنسانية وإبداعاتها المختلفة عبر العصور، فإننا سنحصر موضوعنا في هذه الدراسة، في الجوانب الأدبية والفقهية والتعليمية، وهي الجوانب التي كان لها الحظ الأوفر من الحضور، في ثقافة المجتمع المديني بالمغرب في المدة الزمنية المُعيّنة.

وهدفنا هو، المساهمة في كتابة التاريخ الاجتماعي لمدينة تطوان أولا، والرد على الأطروحة الاستعمارية السالفة الذكر ثانيا، وإثارة الانتباه إلى هذا النوع من إسهامات الجزائريين بتطوان ثالثا، ورابعا الدعوة إلى توحيد الجهود، من أجل التنقيب عن هذا التراث التاريخي وجمعه، والحفاظ عليه وتنميته.

المبحث الثاني: الجزائريون ونوعية إسهاماتهم الثقافية

يبدو أن إسهامات الجزائريين بتطوان خلال النصف الثاني من القرن 13 هـ / 19م، تجلت في الحقل الثقافي، في جملة من المظاهر الأساسية المميزة للمجتمع الإسلامي وهويته الحضارية. نجتزئ منها على الخصوص:

علوم الدين والأدب والتعليم، كما تبيّنه المصادر المغربية والجزائرية. فلا تخلو بعض الرسائل السلطانية المغربية، من الاعتراف والإشادة بإسهامات الجزائريين، خاصة في حقل الفقه، والأدب، والتعليم، حيث وردت ألفاظ، تكرس غلبة هذا التوجه الثقافي. مع العلم، أن هذه الرسائل وغيرها، كُتبت في إطار التوجه السياسي والاجتماعي للسلطة الحاكة، إزاء ظاهرة الهجرة الجزائرية إلى المغرب، من أجل احتوائها والحد من آثارها السلبية. فكان نظر المخزن المغربي، يتجه نحو العناية بهؤلاء الجزائريين المثقفين المتفقهين في علوم الدين، وذلك بتقديم المساعدات اللازمة لهم ماديا ومعنويا. ومن الرسائل السلطانية المعبرة عن ذلك: رسالة من السلطان عبد الرحمان بن هشام إلى قائد مدينة تطوان محمد أشعاش مؤرخة في متم شعبان 1254 هـ / أواسط نوفمبر 1838م[199]، يأمره فيها بالعناية وتقديم المساعدة لفقيه جزائري - لم يذكر اسمه - كان قاضيا في بلده الأصلي ثم اضطرته الوضعية السياسية في بلاده إلى اللجوء إلى تطوان، والجود على ابنه الذي كان طالبا وحافظا لأمهات الكتب الفقهية على صغر سنه بستين أوقية في كل شهر من مستفاد الأوقاف بتطوان، "ليستعين بها على الزيادة في الطلب

[199] - انظر محمد داود، *تاريخ تطوان*، م . س، مج 8، ص. 314-315.

والنشاط فيه"[200]. ويحث السلطان قائده على تطوان على ترغيب والده - أي والد الابن المذكور - "في تدريس العلم ونشره"[201].

فمن دون شك أن الفقيه المذكور في هذه الرسالة، والذي كان قاضي المواريث في الجزائر، قد درّس علم الفقه بأحد المساجد أو بعضها في مدينة تطوان، عملا بوصية وأمر السلطان، وأن ابنه كان من المشاركين في هذا العلم وغيره. ونفترض أن يكون السلطان قد قصد بهما: الفقيه عبد العزيز الجزائري، وابنه محمد بن عبد العزيز الجزائري، المعروفين في الأوساط العلمية الفقهية والثقافية بتطوان حينئذ، واللذين سنأتي على ذكرهما بعد قليل.

وفي إحدى الحوالات الحبسية التي يعود تاريخها إلى سنة 1246 هـ / 1830[202]، ورد وصف لأحد الفاعلين الجزائريين بتطوان وهو أحمد الجيار الجزائري، بأنه "الفاضل الأمجد الموفق الأسعد"[203]، وأنه بيده خط العالم العلامة الولي الصالح سيدي أحمد الورزيزي"،[204] يعني أنه أخذ العلم عن الشيخ المذكور، مع العلم أن مفهوم العلم في القرن 13هـ / 19م كان مقرونا بالفقه. وبالتالي يمكن اعتبار أحمد الجيار الجزائري من الذين درسوا الفقه وساهم بنصيبه فيه، إما تعلما أو تعليما، أو مشاركة شفوية، في بعض المجالس العلمية.

وفي النص الثاني من الحوالة الحبسية المشار إليها أعلاه، مؤرخ في 1271هـ / 1854[205]، تمت تحلية عبد العزيز الربيع الجزائري - المشار إليها في الرسالة السلطانية السابقة الذكر - بالصفات التالية: "الفقيه

[200] - محمد داود، *تاريخ تطوان*، م. س، مج8، ص. 315.
[201] - نفسه.
[202] - أصل هذه الوثيقة يوجد بنظارة الأحباس بتطوان.
[203] - نفسه.
[204] - نفسه.
[205] - الحوالة الحبسية، نظارة الأحباس بتطوان.

الأجل الصدر المكين، المبجل العلامة الدراكة الأفضل"[206]، ويزيد النص في التعريف بخصاله الخلقية والعلمية بالقول أنه اشتهر "بدينه وأمانته وضبطه وحزمه وكفايته"[207].

فهذه الألفاظ المستعملة في النصين لوصف الشخصيتين الجزائريتين الأصل، بالرغم مما تحمله من حمولة لغوية مبالغ فيها، تساير المنظومة اللغوية عند أصحاب التراجم ومثقفي القرن 13 هـ / 19م، فإنها استعملت لتعبر عن حقيقة نوعية إسهامات الشخصيتين المذكورتين، في الحياة الثقافية الفقهية بمدينة تطوان. ومما يزيد وضوحا في هذا الأمر، هو أن الحوالة الحبسية نفسها كتبت من طرف أشخاص يحملون نفس الصفة ـ أي العدول ـ ومع ذلك نلاحظ أن نعوتهم للشخصية الأولى (أحمد الجيار) تختلف كثيرا عن نعوتهم للشخصية الثانية (عبد العزيز الربيع الجزائري). فهذا الأخير اشتهر اسمه، كما مرّ بنا، في الأوساط العلمية التطوانية يومئذ، بتفقهه وعلمه وكفاءته، لا يجادل فيها أحد من رجال عصره. وترك هذا الرجل ولدا اسمه: محمد بن عبد العزيز، لا يقل عنه فقها، وأدبا، وثقافة، وشهرة، بين أهل تطوان. فهذا الفقيه والمؤرخ محمد داود، يعتبره من العلماء المشهورين وأحد الأصدقاء المقربين من الشيخ عبد السلام بن ريسون، حيث يقول فيه "فمن العلماء المشهورين السادة: ... الفقيه السيد محمد بن عبد العزيز"[208]، ويصفه في مكان آخر بـ "الفقيه الخير السيد محمد بن عبد العزيز الجزائري، كان من العلماء الذين يحضرون المجالس العلمية مع السيد رحمه الله"[209].

[206] ـ الحوالة الحبسية، م . س.

[207] ـ نفسه.

[208] ـ محمد داود، *تاريخ تطوان*، المطبعة الملكية، الرباط ـ المغرب، 1990، المجلد 7، ص. 15.

[209] ـ داود، *تاريخ تطوان*، م . س، مج 7 ص. 176.

وتشير رسالة السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام مؤرخة في 24 شوال 1258هـ / 9 دجنبر 1842م[210]، إلى أحد رجال الفقه الجزائريين بتطوان، وهو الفقيه الشريف السيد محمد بن شطاب الجزائري، الذي استفاد بالمناسبة، من منحة سلطانية، (قدرها ثلاثين مثقالا) لفقهه، وشرف نسبه، وتغربه عن وطنه. كما استفاد السيد عبد الرحمان بن جعدون من إحدى دور الأحباس بتطوان، زيادة على مرتب من مستفادها بأمر سلطاني، لتغربه واحتياجه فضلا عن انتمائه لأسرة علم، وصلاح، وفقه، كما يتبين من رسالة سلطانية أخرى مؤرخة في 28 شوال 1262 هـ / 9 أكتوبر 1846[211].

ومن رجالات الثقافة الجزائريين كذلك، بعض الفقهاء الذين أوردهم الفقيه أحمد الرهوني في كتابه عمدة الراوين، حيث كان منهم من تتلمذ عليهم في مساجد تطوان ومدارسها، نذكر منهم:

ـ قدور الضرير بن القاش الجزائري الذي "كان له إلمام بالعلم وحفظ القرآن الكريم"[212]، والفقيه الحاج عبد السلام بن القاش المعاصر للرهوني[213].

ـ وكان العباس بن عبد الرحمان بن مرزوق من شيوخ الرهوني ومن الفقهاء المشهورين بمدينة تطوان[214]. وهو سليل الفقيه الذائع الصيت بتطوان السيد عبد القادر بن مرزوق، الذي يقول في حقه عبد السلام السكيرج: "كان رحمه الله إماما في النحو والفقه والتفسير والبيان ... من

---

[210] ـ يوجد أصل هذه الرسالة في الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 11 / ك II.

[211] ـ يوجد أصل هذه الرسالة في الخزانة الحسنية تحت رقم 2 / 56 I. نشرها محمد داود في كتابه *تاريخ تطوان*، منشورات الخزانة الداودية، تطوان، 1998، مجلد 9، ص. 318 ـ 319.

[212] ـ أحمد الرهوني، *عمدة الراوين في تاريخ تطاوين*، مخطوط يوجد في المكتبة العامة والمحفوظات بتطوان ـ قسم المخطوطات تحت رقم 1082، ج 3، ص. 10 (كان هذا الكتاب مازال مخطوطا عند تحرير هذه الدراسة. أما الآن فقد طبع ونُشر ضمن منشورات جمعية تطاون ـ أسمير)

[213] ـ إدريس بوهليلة، العائلات الجزائرية بتطوان من خلال مخطوط عمدة الراوين في تاريخ تطاوين لأحمد الرهوني، *مجلة كلية الآداب بتطوان*، مطبعة الطوبريس، طنجة، العدد 10، السنة 2000. ص. 303.

[214] ـ إدريس بوهليلة، العائلات الجزائرية، م . س، ص. 304.

العلماء العاملين تابعا لكتاب الله، حافظا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم"[215].

- كما كان محمد بن أحمد الجزائري من فقهاء ومحدثي عصره، مارس التدريس، والخطابة الوعظية. أفرد له الرهوني ترجمة خاصة، وقال بأنه كان محدثا، وواعظا، وخطيبا، في عدة مساجد، منها مسجد جامع الفوقي والزاوية الريسونية[216]، والرهوني نفسه حضر بعض دروسه في الأجرومية حيث يقول فيه: "فكان له درس جميل وتأن وتؤدية وحسن تفهيم"[217]، توفي بعد سنة 1310هـ / 1893م.

- وكان أبو العباس أحمد بن عبد الكريم بن محمد بن أبي القاسم المعروف بالغنمية المولود سنة 1292 هـ / 1875م من أدباء وعلماء عهده، فقد عمل في تطوان وآسفي والدار البيضاء وطنجة والجديدة، وعين أخيرا رئيس كتابة وزارة المالية في المنطقة الخليفية، ثم أدرج في كتابة الصدارة العظمى على عهد الحماية الإسبانية[218].

- ثم إن والده عبد الكريم السليماني، كان يعد من أعيان تطوان ووجهائها. ولا شك أنه درس الفقه، والأدب، والحساب، والتوقيت وغيرها، مما أهله للعمل أمينا للمال بتطوان، والدار البيضاء، ودار عديل بفاس، ثم ناظرا عاما لأحباس تطوان، إلى أن توفي في أواسط جمادى الأولى عام 1326 هـ / أواسط يونيو 1909م[219]. وهذه العائلة تنتسب إلى مدينة تلمسان بحسب إفادة أحمد الرهوني[220].

---

[215] - عبد السلام السكيرج، *نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم فيه أو تقرر من الأعيان*، تقديم وتحقيق يوسف احنانة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط. 1، 2005، ص. 119.

[216] - إدريس بوهليلة، م . س، ص. 305.

[217] - أحمد الرهوني، م . س، ج. 6، ص. 104.

[218] - إدريس بوهليلة، م . س، ص. 307.

[219] - إدريس بوهليلة، م . س، ص. 307.

[220] - أحمد الرهوني، م . س، ج. 7، ص. 13.

والجدير بالذكر أنه برز ـ فضلا عن هؤلاء ـ مجموعة من المثقفين الجزائريين الفاعلين في الوسط الاجتماعي التطواني خلال القرن 12هـ / 18م، نذكر من أشهرهم والذين ورد ذكرهم على ألسنة فقهاء المدينة وأدبائها، على سبيل المثال:

ـ الفقيه الأديب الخطاط عيسى الجزيري، الذي عاصر باشوات تطوان: أحمد الريفي، الذي حكم المدينة بقبضة من حديد، وعمر لوقش الذي ولاه أهل تطوان حاكما عليهم، ضدا على أحمد الريفي. كما عاش آخر حياته، في كنف القائد محمد بن عمر لوقش، الذي سامحه وقبل رجوعه إلى تطوان، بعد هروبه إلى طنجة صحبة القائد أحمد الريفي، في أثناء صراعه وحربه مع أهل تطوان[221].

ـ كما كان محمد التلمساني من الفقهاء المعروفين. تتلمذ عليه عبد السلام السكيرج الذي يقول فيه: "ومنهم الشيخ الإمام العارف الهمام الفقيه المحدث الأديب عالم الأعلام وشيخ الإسلام ... قد سقته العلوم زلالها، ومدت عليه العناية ظلالها، وأحلته الجلالة حللها وأرشفته الأصالة عذبها وسلسالها ... كان له خط رائق. قرأت عليه مختصر الشيخ خليل مرارا بسرد شارحه الزرقاني، ورسالة العالم العلم أبو عبد الله محمد بن أبي زيد القيرواني مرارا، وأرجوزة الإمام ابن عاشر مرارا، وألفية الإمام ابن مالك مرارا، ولامية المجراد والجرومية مرارا، وكتاب الإمام البخاري مرارا ... توفي رحمه الله عام إثنين وتسعين ومائة وألف"[222] (1192هـ / 1778م).

هذه نماذج من الشخصيات الجزائرية الأصل والتي كان لها ذكر في المحافل الثقافية ـ على قلتها ـ في تطوان القرن 13 هـ / 19م، والتي ورد ذكرها في المصادر المحلية والوطنية. وإذا كانت هذه الشخصيات قد نعتت و وصفت بالعلم والفقه والأدب والتعليم، فإننا ـ للأسف ـ لم نعثر لها عن إنتاج أو آثار كتابية تطابق هذه النعوت والأوصاف والتي كانت تطلق في غالب الأحوال، بدون تمعن في دلالتها الواقعية. فهل

[221] ـ عبد السلام السكيرج، م . س، ص. 67 ـ 68.

[222] ـ عبد السلام السكيرج، م . س، ص. 93 ـ 94.

كان مجتمع تطوان القرن 13 هـ / 19م مجتمع الثقافة الشفاهية والمشاركة الكلامية، لا يتعداها إلى إنتاجات كتابية،مما يفسر كمية الإنتاج الثقافي الكتابي المتخلف عن علماء تطوان عامة في العهد المذكور، الذي يتميز بالضعف والقلة وبالبساطة في النوعية، حيث كان ينحصر في الثقافة الدينية والأدبية والتصوف، وبشكل خافت في الحساب والتوقيت والهيئة؟

و إن الإنتاج الثقافي الكتابي المتخلف عن الفاعلين المساهمين الجزائريين، نموذج عن ذلك الوضع الثقافي، الذي يخالف الوضع الثقافي في مدينة فاس، القطب المعرفي بالمغرب.

المبحث الثالث: من آثارهم الباقية

ذكرنا فيما قبل، أن الجزائريين ساهموا في الحياة الثقافية التطوانية بنصيبهم، كشريحة اجتماعية منصهرة في المجتمع التطواني وفاعلة فيه، في محاولة لإثبات الذات والتعبير عن مكنوناتهم ودورهم في هذا المجتمع، وتبيان مشاركتهم الإيجابية فيه. ونحن نحكم على هذه المساهمة الثقافية - بحكم آثارهم الباقية منها - بالضعف والقلة، إن لم نقل بالفقر، بالنظر إلى الأعداد الوافرة من هؤلاء المهاجرين الجزائريين الذين يمموا مدينة تطوان وجعلوها مستقرا لهم، وبالنظر إلى كمية وكيفية إسهاماتهم البارزة في مدينة فاس، القطب المعرفي والعلمي بالمغرب كافة. مع العلم أننا نكاد نجزم أن بعض آثارهم الثقافية قد فقد مع مرور الزمن وتعاقب الأحداث، والبعض منها - ربما - ما يزال يرقد موزعا بين المكتبات العامة والخاصة، أو عند بعض الأسر، لم تصل إلينا لهذا السبب أوذاك. ومع ذلك فهي، في رأينا، مساهمة كتابية هزيلة كما وكيفا، شأنها شأن مساهمة أهل تطوان أنفسهم.

ومن هذه الآثار الباقية التي قادنا البحث إليها، مذكرة[223] لأحد الجزائريين، حول حرب تطوان (1276 هـ / 1859 ـ 1860م). صاحبها المجهول آثر البقاء في تطوان أثناء هذه الحرب، ولمّا لم يقدر على الصمود هاجر مع المهاجرين من أهل تطوان إلى شفشاون، ثم عاد إلى تطوان في أعقاب الحرب، وبقي بها مقاوما ظروف العيش، لضعف حاله، وعدم احتماله للسفر ثانية، كما يُفهم من كلامه حيث يقول: "ونحن لم يجلسنا بتطوان إلا حفظ الدار، لقلة ذات اليد، وأما لو كان الحال متسع، فوالله ما جلسنا"[224]. فجاء وصفه للحالة التي كانت عليها تطوان، خلال الاحتلال وصفا دقيقا، ومزج ذلك ببعض التعليقات عليها، يقول عنها الفقيه محمد بن تاويت: "للمذكرة قيمة تاريخية، وصاحبها معتدل بعض الشئ في انتقاده، ثم هو إلى جانب ذلك صريح في تسجيل حوادثه الخاصة ... ونقده للإسبان نقد بصير قوي الملاحظة، ومقارناته التاريخية وغيرها تشهد على اطلاعه الجيد"[225]. والمذكرة تقع في نحو 37 صفحة حسب نشرة الفقيه ابن تاويت. كما جعلها محمد داود، من مصادره الثلاث الأساسية حول حرب تطوان، إلى جانب مذكرة الفقيه مفضل أفيلال، وتقييد لمؤلف مجهول. ولأهمية هذه المذكرة فقد نقلها إلى اللغة الإسبانية وعلق عليها بعض المترجمين الإسبانيين، وهو رويز أورساطي Reginaldo Ruiz Orsatti. ونشرها في مجلة الأندلس Andalus سنة 1934. ومما ورد في هذا التعليق حسب محمد داود: "ومؤلف المخطوطة ملأها من أولها إلى آخرها بالتعصب المتطرف، كما أنها يتراءى فيها روح التشدد الذي كان عليه المغرب إذ ذاك، واستحواذ التهويل على ما يذكره من القضايا ... وفي القضايا التي يتناولها بالذكر دائما وأبدا يمزجها بالبغضاء والاحتقار للمحتل"[226].

---

[223] ـ هذه المذكرة نشرها الفقيه محمد بن تاويت في مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية، تطوان، العدد 1، السنة 1956، ص. 13 ـ 50، ونشرها محمد داود في كتابه *تاريخ تطوان*، المجلد 5، المطبعة المهدية، تطوان، 1965، ص. 277 ـ 295، وعلق عليها أحد الإسبانيين وهو رويز أورساطي (Reginaldo Ruiz Orsatti) ونشره في *مجلة الأندلس (Andalus)* التي كانت تصدر في مدريد، المجلد الثاني، القسم 1 سنة 1934. وأورد محمد داود ترجمته في كتابه المذكور، المجلد 5، ص. 296 ـ 300.

[224] ـ المذكرة، نشرة محمد بن تاويت، السابق الذكر، ص. 44 ـ 45.

[225] ـ محمد بن تاويت، م . س، ص. 17.

[226] ـ محمد داود، *تاريخ تطوان*، م . س، مج 5، ص. 297.

وكل ما ورد في هذه المذكرة، من أفكار ومعلومات، تدل دلالة واضحة عن وطنية هذا الجزائري المجهول، وغيرته على بلدة تطوان وهويتها الحضارية، وتفاعله واندماجه في مجتمعها.

ومن المُخلّفات الباقيات من إنتاجات الجزائريين بتطوان في الحقل الأدبي الشعري: قصيدة للفقيه محمد بن عبد العزيز الجزائري، في رثاء الشيخ عبد السلام بن ريسون، نشر منها بعض الأبيات المؤرخ محمد داود في كتابه تاريخ تطوان المجلد السابع، ص. 176. يبين فيها فضل الشيخ المرثي على المهاجرين الجزائريين إلى تطوان، ودوره الاجتماعي الإكرامي والثقافي.

وإن صلة محمد بن عبد العزيز الجزائري بعبد السلام بن ريسون، وحضوره في مجالسه العلمية ومشاركته فيه، وتعاهده للزاوية الريسونية، يجعلنا نرجح أن يكون ابن عبد العزيز من أتباع هذه الزاوية، على الأقل في عهد شيخها المذكور. و من الراجح أن يكون لابن عبد العزيز إسهامات أخرى، غير هذه القصيدة.

خاتمة

وفي الأخير، تجدر الإشارة، إلى بعض الملاحظات الأساسية، تتعلق بالدراسة المقارنة بين إسهامات الجزائريين في تطوان وإسهاماتهم في فاس:

1 - إن إسهاماتهم في فاس، تميزت بنشاط كبير، وبكثافة كما وكيفا، لا مثيل لها في المدن المغربية الأخرى، ومنها بطبيعة الحال مدينة تطوان.

2 - إذا كانت إسهاماتهم بتطوان، اتسمت بالقلة في الثقافة: الأدب والشعر والدين وغير ذلك. فإنها امتازت من ناحية أخرى بالكثافة والنوعية في المجالات الأخرى: العسكرية والحرفية والتجارية ... إلخ.

3 - إننا نشك في حصيلة مخلفاتهم الثقافية المكتوبة، التي تميز بالقلة. فالألفاظ التي أطلقها عليهم مترجموهم كالفقيه أحمد الرهوني ومحمد داود، وبعض العدول وغيرهم، توحي بل وتدل على مكانتهم المحترمة في مختلف المناحي الثقافية.

4 ـ لكل ما ذكر، نظن بل و نكاد نجزم أن الزمان قد عبث بتراثهم الفكري في تطوان، وضاع مع ضياع الكثير من التراث التطواني المغربي الأندلسي، ولربما بقي البعض منه متفرقا موزعا في الخزانات العامة والخاصة وعند الأهالي. وقد يأتي زمن يكشف عن بعض هذه الإسهامات الثقافية. وهذه الملاحظة لا تتعارض مع ملاحظتنا حول ضعفهم في الإنتاج الثقافي في جوانبه المذكورة.

وكل ما ذكرناه عن هذه الإسهامات، سواء في فاس أو تطوان، يدل دلالة واضحة على بطلان أطروحة كتاب الاستعمار التي نسجوها حول هجرة الجزائريين إلى المغرب. هذه الأطروحة، إنما تعبر عن جهل أصحابها، أو تجاهلهم الواضح لمفهوم "الهجرة" في الفكر والممارسة الإسلاميتين، فما كان يعنيهم ليس المفهوم في حد ذاته، وإنما الجانب العملي فيه وهو كيفية استغلال المهاجرين الجزائريين في مشاريعهم التوسعية الاستيطانية الاستعمارية، ومحاولة الإيقاع والتفرقة بين أبناء المغرب الكبير، وبالتالي بين أهل الجزائر وأهل المدن المغربية على أرض المغرب الأقصى. إلا أنه يبدو أن محاولات كتاب الاستعمار هاته، باءت بالفشل أمام عوامل الوحدة التي تربط بين الشعبين المغربي والجزائري برباط متين.

المصادر والمراجع

1 ـ العربية

ـ ابن زيدان عبد الرحمان، إتحاف أعلام الناس لجمال أخبار حاضرة مكناس (ج3)، الدار البيضاء، مطابع إيديال،ط.2، 1990.
- ابن عزوز حكيم، تطاونيات في ذاكرة التاريخ، تطوان، 2001
ـ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب (مج8)، دار المعارف (دون تاريخ).
ـ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (ج5، وج6)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط.2، 1985.
ـ أمطاط محمد، الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830 و 1962، أطروحة لنيل الدكتوراة في التاريخ المعاصر من كلية الآداب، جامعة محمد الخامس بالرباط ، السنة الجامعية 2004 ـ 2005. توجد مرقونة في المؤسسة المذكورة.
ـ أمطاط محمد، الجزائريون في المغرب ما بين سنتي 1830 و1962، الرباط، دار أبي رقراق للنشر، 2008.
ـ لانجلوا وسينوبوس،المدخل إلى الدراسات التاريخية، ضمن كتاب النقد التاريخي، ترجمة عبد الرحمان بدوي، بيروت، دار النهضة العربية 1963.
ـ التهامي الوزاني، الزاوية، مراجعة وتقديم عبد العزيز السعود، منشورات جمعية تطاون أسمير، ومؤسسة التهامي الوزاني للثقافة والتراث، ومركز التوثيق والدراسات حول شمال المغرب، تطوان،1419هـ/ 1999م.

- الجزائري محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر (ج1، وج2)، الإسكندرية، 1903.
- الجعايدي إدريس، الابتسام عن دولة ابن هشام، مخطوط يوجد في الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 1249.
- الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام (ج 4)، الجزائر، المطبعة العربية، ط.1، 1401هـ/1981م.
- حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ (ج 3)، الدار البيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة، 1399 هـ/ 1983
- حركات إبراهيم، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1987.
- حمدان بن عثمان خوجة الجزائري، المرآة، ترجمة محمد بن عبد الكريم، بيروت، دار مكتبة الحياة 1972.
- خليفة إدريس، الحركة العلمية والثقافية بتطوان من الحماية إلى الاستقلال (ج،1وج2)، المحمدية، مطبعة فضالة. (دون تاريخ).
- داود محمد ، تاريخ تطوان، (مج 5)، تطوان، مطبعة المهدية، 1965.
- داود محمد، تاريخ تطوان، (مج 7)، الرباط، المطبعة الملكية، 1990 .
- داود محمد، تاريخ تطوان، (مج 8)، الرباط، المطبعة الملكية، 1979.
- داود محمد، تاريخ تطوان، (مج 9) ، منشورات الخزانة الداودية بتطوان، إخراج وطبع سليكي إخوان، طنجة، 1419هـ/ 1998م.
- الرهوني أحمد، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، (ج3، وج4، وج5، وج7)، مخطوط يوجد في المكتبة العامة والمحفوظات تحت رقم 1082. (حُقق الكتاب من طرف د. جعفر بلحاج السلمي ونشره ضمن منشورات جمعية تطاون - أسمير. صدر الجزء الأول منه سنة 1998م، وصدرت ست أجزاء أخرى بالتتابع).
- السعود عبد العزيز، تطوان في القرن التاسع عشر، تطوان، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، مطبعة الحداد يوسف إخوان (الهداية)، ط. 1، 1996.

- السكيرج عبد السلام، نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم فيه أو تقرر من الأعيان، تقديم وتحقيق يوسف احنانة، تطوان، مطبعة الخليج العربي، ط. 1، 2005.
- السليماني محمد بن الأعرج، اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب،الرباط، مطبعة الأمنية، ط.1، 1391هـ/1971م.
- سيد عبد العال عبد المنعم، لهجة شمال المغرب، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1986.
- العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب (3)، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط. 1، 1999.
- العروي عبد الله، مفهوم التاريخ (ج1)، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط.1، 1992.
- مجموعة من الباحثين، المعجم الوسيط (مج1)، مطابع دار المعارف بمصر،ط.2، 1393هـ/1973م.
- المشرفي أبو حامد العربي المشرفي، طرش الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر،مخطوط توجد نسخة منه في الخزانة العامة بالرباط، قسم الوثائق والمخطوطات، تحت رقم 496 ك.
- المشرفي أبو حامد العربي، ذخيرة الأواخر والأول، مخطوط يوجد في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2659 ك.
- المشرفي محمد، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية (ج1، وج2)، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2005.
- المكناسي محمد بن عثمان، الإكسير في افتكاك الأسير، تقديم وتحقيق محمد الفاسي، مطبعة أكدال، الرباط (دون تاريخ).
- الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى(ج9)، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1956.

المجلات والدوريات والجرائد

- مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية، تطوان، العدد 1، السنة 1956.
- مجلة أوفشوت (OFFSHOOT)، المجلد 3، منشورات مجموعة البحث في الترجمة والدراسات المقارنة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، العدد 2، السنة 2000.
- مجلة البحث العلمي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي - جامعة محمد الخامس - الرباط، العدد11 و12، ماي - دجنبر 1967.
- مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، طنجة، مطبعة ألطوبريس، العدد 10، السنة 2000.
- جريدة الصباح، السنة 5، العدد 1305، الخميس 17 - 06 - 2004 .

أعمال الندوات

- أعمال ندوة مجهودات وإسهامات الأجيال السالفة عبر التاريخ في بناء المغرب العربي، منشورات وزارة التربية الوطنية، المغرب، مكناس، 1988.

الوثائق

- وثائق الخزانة الحسنية بالرباط
- وثائق مديرية الوثائق الملكية بالرباط
- وثائق نظارة الأحباس بتطوان

2 - الأعجمية

- Akar Metin, Les mots turcs dans le dialecte arabe du Maroc : Colloque : Le Maghreb à l'epoque ottmane 1 er édition Najah Eljadida, Casablanca, 1999.

- Alfred le Chatelier, Les Musulmans au Maroc et en Syrie, Revue du Monde Musulman, T. II, Paris, 1907.

- Charles Didier, Promenade au Maroc, Paris 1844.

- Edmond Doutè, Des moyens de développer l'influence Française au Maroc, Paris, 1909.

- Joly (A), l'industrie à Tétouan, in Archives Marocaines, Tome XV, Paris, 1909.

- Michaux – Bellaire, Les Musulmans d'Algérie au Maroc, in Archives Marocaines. V. XI Paris 1907.

- Michaux Bellaire, El Qçar El Kibir, in Archives Marocaines, T.2. Paris 1905.

- Miège, Tétouan à Travers les siècles, Imp. Haddad freres Hidaya, Tétouan, 1996.

- Mougin (capitaine), Les Algériens à Oujda, in Renseignements coloniaux et documents. N° 9 Septembre 1908.

فهرس الموضوعات

تقديم...5

مقدمة...9

الفصل الأول: تقييم الوثائق المخزنية حول هجرة الجزائريين إلى تطوان سنة 1246هـ/1830م..15

مقدمة...15

المبحث الأول: التعريف بالوثائق المخزنية المعتمدة.....................................16

1 ـ التعريف اللغوي والاصطلاحي...16

2 ـ نوعية الوثائق المخزنية المعتمدة..17

3 ـ تاريخ كتابة الرسائل السلطانية...18

المبحث الثاني: تقييم الرسائل السلطانية...21

1 ـ الهندسة العامة للرسائل السلطانية...21

2 ـ لغة الرسائل السلطانية..22

3 ـ مضامين الرسائل السلطانية...24

أ ـ مضمون الرسالة الأولى: التضامن والوحدة.....................................25

ب ـ مضمون الرسالة الثانية : الإدماج...30

ج ـ مضمون الرسالة الثالثة: الحرية والتنبيه وحفظ الكرامة......................31

د ـ مضمون الرسالة الرابعة: التأكيد على التضامن 33

هـ ـ مضمون الرسالة الخامسة: الإدماج...34

و ـ مضمون الرسالة السادسة: التأكيد على التضامن والوحدة....................35

المبحث الثالث: قيمة الوثائق المخزنية...35

1 ـ الأطروحة السلطانية في مواجهة الأطروحة الاستعمارية............................35

2 ـ أهمية الوثائق المخزنية في تأريخ الهجرة الجزائرية إلى تطوان.....................36

خاتمة...40

الفصل الثاني: الجزائريون في المغرب وحرب تطوان.......................................43

مقدمة...43

المبحث الأول: مسألة الكتابات التاريخية حول الجزائريين في المغرب....................44

المبحث الثاني: كاتب جزائري مجهول ومذكرته عن حرب تطوان.................................49
1 ـ موقفه من حرب تطوان.. 51
2 ـ موقفه من الإسبان...53
3 ـ موقفه من المخزن المغربي..55
المبحث الثالث: محمد المشرفي وكتابه الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية............ 56
1 ـ موقفه من حرب تطوان..57
2 ـ موقفه من الإسبان...59
3 ـ موقفه من المخزن المغربي...60
خاتمة...61
الفصل الثالث: العائلات الجزائرية بتطوان من خلال كتاب عمدة الراوين لأحمد الرهوني.......65
مقدمة...65
المبحث الأول: المؤلف وكتابه عمدة الراوين...67
1 ـ المؤلف..67
2 ـ الكتاب..67
3 ـ السياق العام لتأليف الكتاب...69
المبحث الثاني: العائلات الجزائرية بتطوان من خلال عمدة الراوين..............................70
1 ـ العائلات المترجم لها...72
2 ـ العائلات المذكورة بدون تعريف...77
خاتمة...79
الفصل الرابع: التشكيلة الاجتماعية للجزائريين في تطوان في القرن 19 م.............................81
مقدمة...81
المبحث الأول: التآليف الاستعمارية والتعريف بالوثيقة المخزنية المعتمدة.........................82
المبحث الثاني: التشكيلة الاجتماعية للجزائريين في تطوان...87
1 ـ الأصول العرقية للمهاجرين...87
أ ـ الكرغليون...88
ب ـ العرب...90
ج ـ الأتراك...92
د ـ السودانيون...92
هـ ـ مجهولو الأصل العرقي..93

2 ـ التصنيف المهني والاجتماعي.. 93
أ ـ الحرفيون.. 94
ب ـ الطبجيون.. 96
ج ـ الأعيان... 97
د ـ القلاقطية.. 100
هـ ـ البحرية.. 101
و ـ رؤساء البحر.. 102
ز ـ التجار / العطارة.. 102
ح ـ الإداريون / الشاوش... 103
ط ـ مجهولو المهنة.. 103
خاتمة.. 104
الفصل الخامس: الأحياء الجزائرية بتطوان في القرن 13هـ/19م........................ 107
مقدمة.. 107
المبحث الأول: علاقة هجرات الجزائريين بالعمارة والتعمير في تطوان.................. 108
المبحث الثاني: نماذج من الأحياء الجزائرية في تطوان...................................... 109
1 ـ حومة أحفير... 110
2 ـ حومة جامع الكبير.. 112
3 ـ حومة الوسعة وسوق الغزل.. 113
4 ـ حومة الطرانكات.. 114
5 ـ حومة باب السفلي.. 115
خاتمة.. 117
الفصل السادس:بعض مظاهر التأثيرات الجزائرية العثمانية في الحياة الثقافية والاجتماعيةبتطوان119
مقدمة.. 119
المبحث الأول: العوامل المساهمة في عملية التأثيرات... 120
1 ـ الموقع الجغرافي.. 120
2 ـ علاقة تطوان بالجزائر العثمانية... 121
3 ـ الهجرات الجزائرية العثمانية إلى تطوان.................................... 122
المبحث الثاني: مظاهر من التأثيرات العثمانية.. 124
1 ـ في الحياة الثقافية 124

2 ـ في الحياة الاجتماعيه..127
أ ـ اللباس..127
ب ـ الأكل...128
خاتمة..130
الفصل السابع: إسهامات الجزائريين الثقافية في تطوان خلال القرن 13هـ/ 19م............131
مقدمة 131
المبحث الأول: مدى اندماج الجزائريين في المغرب وإسهاماتهم فيه؟............................132
المبحث الثاني: الجزائريون ونوعية إسهاماتهم الثقافية بتطوان.................................135
المبحث الثالث: من آثارهم الباقية..141
خاتمة..143



هذا الكتاب

... والواقع أن الأستاذ بوهليلة، المسكون بالحس الوطني المفعم بروح عربي إسلامي، والمدرك لماهية التاريخ والكتابة التاريخية، وبما تمليه عليه الموضوعية التاريخية، قد وضع نصب عينيه البحث عن الأدوار الإيجابية للمهاجرين الجزائريين بتطوان، وإبراز مساهمتهم في مختلف المجالات: العلمية، والثقافية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. كما بيّن من خلال تفاصيل الحياة اليومية قدرة المهاجرين الجزائريين على الاندماج الواسع، وسهولة عملية ارتقائهم الاجتماعي، وكذا روح التسامح لدى مجتمع الاستقبال التطواني، الذي اغتنت روافده البشرية بالعنصر الجزائري الذي ما زالت بصماته حاضرة في كثير من مظاهر حياة تطوان وحضارتها إلى الآن.

فهذا الكتاب مساهمة جادة، وغير مسبوقة، لإماطة اللثام عن جانب مغيب من تاريخ تطوان الاجتماعي في القرن 13هـ/ 19م. وهو بذلك يعتبر لبنة في صرح كتابة التاريخ الاجتماعي للحواضر المغربية في القرن التاسع عشر الميلادي.

الدكتور محمد الشريف

40 dh